

المسيحي

هل الادباء بشر

لقد تمّ (فقيه) فقيه

١٢٥٠

٥/١٢/١٢

هل لا بدّ من

دارالعلم

سنة

الدكتور اسحق موسى الحسيني

892.709

Ha394HA

هل الأديب بئر؟

دار العلم للملايين
بيروت

cat. 99 no. 53

للمؤلف

- ١ - رأي في تدريس اللغة العربية .
المطبعة التجارية في القدس ١٩٣٧
- ٢ - علماء المشرقيات في انكلترا .
المطبعة التجارية في القدس ١٩٤٠
- ٣ - مذكرات دجاجة .
دار المعارف في القاهرة ١٩٤٣
- ٤ - العروض السهل (جزآن) .
بالاشتراك مع الاستاذ فائز الغول
المطبعة العصرية في القدس ١٩٤٥
- ٥ - فن انشاء الشعر العربي (مترجم عن الفرنسية) .
بالاشتراك مع الاب اسطفان سالم
مطبعة الآباء اليسوعيين في القدس ١٩٤٥
- ٦ - عودة السفينة .
مكتبة فلسطين العالمية في القدس ١٩٤٥
- ٧ - اماليب تدريس اللغة العربية .
مطبعة بيت المقدس في القدس ١٩٤٧

مقدمة

هذه فصول في الأدب كُتبت في أوقات مختلفة ،
وأتاح لها الحظّ أن تجمع وتطبع في بيروت ، كما أتاح
لصاحبها أن يهبط هذا البلد الكريم . وقد أُطلق على المجموع
عنوان الموضوع الأول ، من باب تسمية الكلّ بالجزء ،
كما فعل أبو تمام إذ أسمى ديوانه المشهور « ديوان الحماسة » ،
مع أن الحماسة أحد أبوابه ، وهو ضرب من المجاز المرسل
في علم البيان .

ولا يتوهمنّ القارئ الكريم أن هذه الفصول منقطعة
الأصول . فبعضها شطر من كتاب كنت أرجو أن يتّسع
الوقت لتبويبه وطبعه . ولكنّ الأصول ظلت في مكانها
في الوطن الغالي مع سائر ما خلاّفناه في تلك البقعة المقدسة
لتظلّ قلوبنا وعقولنا منوطة بما لن يُنسى مع مرّ الليالي
والأيام .

وربما يعترض معترض على الكتابة في الأدب في حين

كان ينبغي ان تكون تلك المحنة القاسية للظهور المحور
الذي يدور حوله القلم . وهو اعتراض ينطوي على شعور
نبيل لا سبيل الى دفعه . وهو ما دعا الى ظهور فصلين
في الكتاب : الأول يتناول الأدباء في فلسطين من قديم
الزمان الى الوقت الحاضر لاثبات الأصالة الأدبية في الوطن
الغالي ، على نحو ما يرى القارئ . والثاني يترجم لأديب
العربية أستاذي المرحوم محمد إسعاف النشاشيبي . ولعلّ في
هذين الفصلين بعض الشفاعة .

اسمى موسى الحسيني

الجامعة الأميركية

بيروت

هل الالباء بشر؟

يحدوني الى كتابة هذا البحث عبارة وردت في مقال
للاستاذ احمد امين بك في مجلة الثقافة - العدد ٢٣١ -
موضوعه « الشيخ رفاعه الطهطاوي مؤسس النهضة العلمية
الحديثة ». والعبارة هي : « ... ولقد اذكرني ذلك بحكاية
ظريفة . فقد كنت أبادل مع سيدة انكليزية جميلة تعلم
الانكليزية والعربية . وكان لها عينان تشعان الثقة والاخلاص
والامانة ، وكان يصعب عليها النطق بالعين . فكانت تقول :
« إن عينكم هذه تقتلني » ، فأقول في نفسي : « وعينكم
ايضاً تقتلني ! » .

وهذه أول مرة - على ما أعلم - يكشف فيها استاذي
الجليل - حفظه الله - عن سريرة من سرائر نفسه بعبارة
في غاية الایجاز والوضوح والجمال .
ومدلول العبارة أن الاستاذ كان في وقت ما ، ولمدة
لا أحسبها قصيرة ، تحت تأثير عينين لا أصفهما بأبلغ مما

وصفهما هو بقوله : قاتلتين . فما فعلت هاتان العيانان القاتلتان
بقلب الاستاذ ، وما اثرتا في روحه وأدبه ؟ ليس فيما كتب
الاستاذ من مؤلفات ومقالات ما ينبىء عن هذا التأثير ،
لا سيما ومقالاته الوجدانية نادرة ، على ما اعلم . فهل يستنتج
إذن ان تينك العينين القاتلتين لم ينفذ سمُّهما - استغفر
الله - أقصد سجرهما الى شغاف قلب الاستاذ ، ولم توحيا
اليه كتاباً ولا فصلاً ولا مقالاً ؟ ما أظن أن هذا معقول
ولكن المعقول ، إذا كان الادباء بشراً - وهذا امرٌ
لا شبهة فيه - أن يكون الاستاذ قد تأثر فكتب ، ولكنه
عمى على القراء التزاماً لسنن الادباء المحدثين عامة الذين
لا يفصحون من سرائر قلوبهم ، وإن أفصحوا كنوا ورمزوا
أو غمّموا وغمّموا ، كأن الأديب ليس بشراً ، ولا يصحّ
أن يتعرض لما يتعرض له سائر البشر من الأهواء والفتن .
وان قدّر وتعرض لجرح في قلبه فهو من المبتلين الذين يجب
عليهم أن يستتروا حتى يبرأوا ، دون أن يعلم الناس من
أمرهم شيئاً .

أحقاً - عباد الله - أن الأدباء ليسوا بشراً ؟ أحقاً انهم
في منجى عن مرمى العيون القاتلة ؟ ان كان ذلك كذلك
فلنحكم على الأدب الحديث أنه أدب هزيل متكلف ، بعيد
عن التحدث عن سرائر النفوس ، وبعيد عن الكشف عن

خفايا القلوب ، وبعيـد عن تصوير النفس الانسانية وهي
تقلب على مثل الجمر ، وتشوى كما يشوى لحم الجراف .
وأقول اكثر من هذا صادقاً : بعيد عن الادب الحق .
وشيء من هذه الأوصاف قد استخلصها النقاد الصادقون
بما قرأوا من آثار 'جل' الادباء المحدثين . فقالوا : إنه في
مهمومه أدب سطحي لا يتغلغل الى أعماق النفس أو حي
رخو بعيد عن تصوير الأحاسيس تصويراً صريحاً صادقاً ،
أو متكلف يتلبس بشخصيات منتحلة لا وجود لها ، وما الى
ذلك من أوصاف .

وليس فيما بين أيدينا من مؤلفات المحدثين مؤلف واحد
يصحّ أن نعتبره قطعةً حيّة من قلب مؤلفه ، نرى فيه
آثار الدماء ، وطراوة اللحم الغريـض ، وحرارة الجسم
الحيّ . ولهذا نجد أجود ما أنتجه المحدثون إما اقتباساً عن
قصص وأساطير قديمة ، وإما نقلاً عن لغات اجنبية . أما
النتاج الشخصي فجبيـد في بعض نواحيه ، وجودته جودة
نسبية . ولعلّ أبرز عناصره رشاقة الاسلوب أو طرافة
الافكار . وفي القليل منه وصف رائع أو تحليل لعواطف
محدودة ساذجة . أما العواطف العارمة المضطربة التي هي
لبّ لباب الأدب فليست هناك . وأما الوصف الفيّاض
المسهب لدقائق التجارب والمحن الروحية والعقد النفسية فليس

هناك كذلك . واذن فعنصر العواطف والخيال ، القائم
على صدق الشعور وصدق التصوير ، مفقودان ، او يكادان
يكونان في حكم المفقودين .
ولم ذلك ؟ ألأن الأدباء المحدثين عاجزون ؟ الأنهم
غافلون ؟ لا ! لأنهم يريدون أن يجاروا العامة في اعتبارهم
الأدباء واصحاب الفكر أناساً فوق البشر ، أو على الأصح ،
أناساً ليسوا بشراً . وهذا الاعتبار من آثار البيئة التي تفرض
الحياء والتستر والكتمان والزوغان . وحين يجمع قلم الاديب ،
وتفلت منه عبارة تكشف عن سريره ، تلمس أعماق نفسه ،
ويتبين لك أنها نفس إنسان كسائر الناس تتعرض للأهواء
والفتن ، والجرح والكبي ، كتملك العبارة التي فلتت في
مقال الاستاذ ، ونمت عن قلب كبير نابض بالحياة .
تصور الاستاذ وهو جالس الى فتاة مليحة رشيقة ذات
عينين قاتلتين ، يبادلها درساً بدرس ؛ وهو ذلك الرجل
الزين الوقور الجاد في عمله ؛ الذي يدرس الانجليزية بدافع
الرغبة الصادقة فيها ، لا لأداء واجب ، او اكتساب رزق
او طمعاً في علامة ... وهو يدرس في سن متقدمة توجب
عليه الراحة في اوقات الفراغ ، وتفرض عليه الكثير من
الواجبات الثقالة . تصوره وكله وعي وانتباه يريد ان يحصل
في هذه السويعات اكثر ما يمكن من معرفة الانجليزية الغنية

بآدابها ، وليس عنده منها ولا من غيرها من اللغات الاجنبية
زاد يُعينه على التحصيل . فهو يجلس الى معلمته جاداً رزيناً
لا يرفع عينه عن الكتاب إلاّ لسؤال يعرض من حين
لآخر ، فيرفع به صوته مستحيماً ، وعيناه خجلتان يصوبهما
الى وجه معلمته لحظات ثم يردهما الى الكتاب سريعاً ، الى
حين يسمع الجواب فيتمسمران فيه . وهو في كلّ جلسة
يشعر انه امام مخلوق ذي عينين قاتلتين . ولكن ما للعينين
قصد الدرس ، وما لهما تفرّغ في هذه السويعات !
ويأخذ شعوره بقوة العينين يزداد يوماً بعد يوم ، ولكن يشغله
عنهما فهم متزايد للغة اجنبية تفتح له ابواباً جديدة هو في
أشدّ الحرص عليها والحاجة اليها . فقلبه وعقله ينموان
ويتصارعان بقوة واحدة . ولذلك يظلّ شعوره معتدلاً .
وفجأة يقع بصر معلمته على حرف عينٍ مقبل من بعيد
فقلتاع وتضطرب وتخشى ان تُسيء النطق امام تلميذها
ومعلمها ، وقد نهىها الى صحة نطقه مراراً ، فيرميها بالغفلة
او الكسل . فيخطر ببالها ان تعتذر لتتجو من هذه
الازمة ، فتقول : يا سيدي ، ان عينكم تقتلني ... وما
يكاد الاستاذ يسمع هذا الاعتذار حتى يرفع بصره عن
الكتاب ويصوبه الى وجه تلميذته ومعلمته ، فيقع بصره
على عينٍ زرقاء اشدّ قتلاً من هذه العين السوداء ، ويحاول

ان يتكلم ولكنه 'يشغل' بالتحدث الى نفسه بتلك العبارة الموجزة السريعة « وعينكم ايضاً تقمّاني » . ولكنه لا يطيل التحدث الى نفسه خشية ان تكشف معلمته سريرة نفسه ، فيطمئننها ويوّن عليها ، ويتصل الدرس بالدرس ، بعد ان اتصلت العين بالعين ، والروح بالروح لحظةً أشبه بلعمان البرق في دياجير الظلمات . وتكمن هذه العبارة في نفس الأستاذ كما تكمن جميع الانفعالات في أعماق الادباء المحدثين ، دون ان يجروا على إظهارها او التحدث بها ، الى ان يكتب هذا المقال عن الشيخ الطهطاوي فيذكره حرف الـ U بحرف العين ، وتفلت منه عبارة غاية في القوة في الكشف عن اسرار النفوس ، وفضح اسرار القلوب . واعتقد ان الاستاذ لم يبرأ بيأس من سحر العينين . وأظن ظناً يدنو من اليقين انه بفعل تينك العينين كتب ما كتب في الثقافة عن مخطوط « سحر العيون » الذي عثر عليه وهياً له فرصة مواتية للتحدث عن العيون بلغة غيره من الأدباء . واني موقن انه لو تحدّث بلغته هو لجاء حديثه آيةً في الروعة ، لانه يكون من الفرص القلائل التي يتحدث فيها اديب محدث عن اسرار القلب . ولكن تلك الستائر التي تفرضها البيئة الحبيّة حالت دون الكشف عن مكنون القلوب وصادق الأحاسيس .

المقالة في الأدب العربي الحديث

يحدوني على معالجة هذا الموضوع سببان . الأول أهمية المقالة في الأدب العربي الحديث . فهي اليوم الوسيلة الأولى للتعبير عن الأدب والثقافة وما يتصل بها . ومن جهة أخرى فقد نسخت المقالة نوعين من أنواع الكتابة الشبيهة بها ، هما « الرسالة » و « المقامة » اللتان ظهرتا في الأدب المنشور القديم . وربما ضامت المقالة أيضاً - الى حد كبير - القصيدة . فبعض الأدباء الموهوبين الذين يجولون في ميداني الشعر والنثر يؤثرون استعمال النثر على الشعر ، وتناوخ على مقالاتهم أمارات الشعر ، حتى يصح ان تسمى شعراً منشوراً . وثمت كتّاب كثيرون في البلاد العربية يفوح من نثرهم عيب الشعر . ولو حكم على نثرهم بمقاييس الأدب الحديثة لأدخلوا في زمرة الشعراء وان لم يتكلموا نظماً .

يُضاف الى ذلك أن كثيراً من الكتب الحديثة أُخِلق

بأن تسمى مقالات متصلة من مباحث متسكة بدليل أن بعضها نشر فصولاً مستقلة ثم جمع فكان كتاباً ، أو أنها إن فصل بعضها عن بعض وقدم وأخر فيها لم تضم . وهذا برهان قاطع على أن المقالة تعدت منطقتها المألوفة وحدودها المرسومة الى مناطق أخرى . وظاهر من تاريخ المقالة أنها وليدة الصحافة التي ظهرت في مطلع النهضة الحديثة .

والسبب الثاني لمعالجة هذا الموضوع أن المقالة على شأنها وعظم خطرها في الأدب العربي الحديث تبدو هزيلة في كثير من نواحيها . وهي خليقة بالمعالجة لعموم الحاجة اليها ، وشمولها جميع مظاهر الأدب ، حتى الشعر نفسه . فالمقالة - في الواقع - تكاد تكون القالب الرئيسي الذي تُصَبُّ فيه الثقافة والأدب في عصرنا هذا . وبقدر جودتها وقوتها وعمقها ووضوحها ترتفع في نظر النقاد ، وتقوّم النهضة الفكرية والأدبية الحديثة في البلدان العربية .

وخير طريقة لفحص المقالة وسبر قوة بنائها هو تحليلها الى عناصرها الأولية ، او تلخيصها في نقاط رئيسية . والذين يقتضي عملهم إجراء مثل هذا التلخيص يكتشفون في المقالة ، على الفور ، انحلالاً يخفى على القارئ العادي .

والذين ألفوا قراءة المقالات في اللغات الأوروبية يرون

ان أظهر خصائصها بناؤها الهندسي المحكم الأجزاء ، ويعلمون
أن الكاتب لا بُدَّ له قبل الاقدام على سبك مقالته في
قالبها من أن يقيم لها بناء مصغراً مؤلفاً من النقاط الكبرى
والصغرى التي تنتظمها المقالة . ولو جاز التشبيه لقُلنا إن
المقالة عندهم - وكذلك حال القصة والقصيدة والقطعة
الموسيقية - أشبه ببيت يتألف من غرف موضوعة على
طراز ما ، يقرّره المهندس وفق رغبة صاحب البيت وطبيعة
الأرض التي يُشاد عليه . ولذلك يمكن أن تؤخذ صورة
متدرجة في الصغر لهذا البيت ، حتى تنتهي الى الخطوط
الاولية التي رسمها المهندس . وإهمال الرسم الهندسي ، أو حتى
اعتباره ثانوياً في بناء المقالة ، يجعل المقام الأول للألفاظ ،
فتصبح الاناقة اللفظية والمحسنات البديعية والخيال البياني
جوهرًا ، والأفكار والحقائق المجموعة بكبدّ الذهن عرضاً
مبعثراً في ثنايا الألفاظ بعثرة قبضة من الدرّ في كيس
من الرمل .

والواقع أن الكاتب الذي يتكئ على ذخيرته اللفظية
ويجعلها قوام مقالته ، يترك للألفاظ أن تملي عليه ما تريد ،
فتجرّ اللفظة لفظة ، والسجعة سجعة ، والعبارة عبارة ،
وهكذا حتى تصبح الجمل سطوراً من الحشائش المصفقة لا
حياة فيها ولا طائل تحتها . وهذا المنهج في المقالة الحديثة قلّ

شأنه - - حسن الحظ - ولكن ما تزال الألفاظ تتحكم في موضوع الكاتب الذي يهمل الرسم الهندسي ، ويستخف بأمر آخر على جانب كبير من الشأن في المقالة هو الوقت . فالكاتب الذي لا يُقيم وزناً لوقت القارئ ، بل لوقت كل من له علاقة بإعداد مقاله للنشر ، من جامع حروف ، وبائع ورق ، وصاحب صحيفة ، يُسرف في كلماته ويجعل من قطعة من المطاط الشفاف كرةً كبيرة الحجم ، كل ما فيها هواء . أليست براعة الكاتب في عرض أكبر مقدار من الفكر في أقل مقدارٍ من اللفظ ، دون ضم للجهال البياني ؟ هذا - على الأقل - مذهب هذا العصر الذي يدخل الاقتصاد في كل مرفق من مرافق الحياة .

ثم لنتلفت الى الرسم الهندسي من ناحية إيجابية ولنسأل : ماذا يستفيد الكاتب من تجشّم مشقة لا شك في أنها كبيرة ؟ وهل هناك شيء أشقّ على الكاتب من تلمّس ذرات المادة من أعماق الفكر أو خبايا المجتمع أو اسرار الوجدان ، ثم التأليف بينها وعرضها أحسن ما يكون العرض ؟ لعمري ليس شيء أجهد لروح الكاتب من هذه العملية . ولكنها هي كلّ شيء في الكتابة . وخير لمن لا يطيقها أن ينصرف عن الكتابة الى صنعة أخرى أيسر على نفسه . وهذه العملية تجعل لحقائق الفكر والنفس المقام الاول .

ايّ أبلغ في إيصال الحقيقة الى القارىء : وصفها أم عرضها بالذات ؟ وايّ أبلغ في الدلالة على حال من احوال المجتمع : وصفه بصفحات أم إبرازه بأرقام وحقائق واقعية مشاهدة ؟ لا شك في أن الطبيب الذي يعرض صورة الجرائم أبلغ من زميله الذي يصف المرض ، وان الخريطة أبين في الدلالة على مواقع البلدان من المعجم الجغرافي .

وواضع الرسم الهندسي للمقالة ينساق بطبيعة الحال الى اختيار الكلمات ذوات الدلالات والقيم المحدودة ليمرّز البناء واضحاً . وهنا يبدو في مقالتنا ضعف آخر لا يخفى على الفاحص المدقق . وهو ان الكاتب كثيراً ما يحمل معنى من المعاني لأنّ اللفظة التي تعبر عنه إما عامة وإما غير مألوفة في كتب اللغة . ولو عني الكاتب بالفكرة أولاً لضحى قليلاً من هذه الاعتبارات اللفظية . وهذه قضية من القضايا اللغوية التي تشغل علماء اللغة في هذا العصر . وفقدان مفردات اللغة المعبرة عن مرافق الحياة ، صغيرها وكبيرها ، ما جدّ منها في العصور الحديثة كالآلات واللباس والآنية وما إليها ، وما طوته عصور التدي في المؤلفات العربية التي فقدت أو لم تطبع ، يترك في المقالة ثغرة لا بدّ من سدّها .

ولا بدّ قبل الختام من أن أذكر ان المقالة عندنا لا

تزال في دور التكوّن ، وأنها بالنسبة الى اختها المقالة
الأوربية صغيرة السن . وليس من الانصاف أن نوازنها بها
أو أن نقيسها عليها . ولكن عرض هذا البحث بما يعجل
نموها ويدعو الى سدّ الثغرات فيها .

ولا ريب في أن بين كتّاب المقالة المحدثين كتاباً أدركوا
قيمة الرسم الهندسي للمقالة فالتزموه وأعدوا له ما يلزمه من
ألفاظ منتخلة وتعابير واضحة . ويطول المقام لو عددت
اسماءهم . ولكنني لن أنسى مقالات بلغت حداً كبيراً من
التوفيق اذكر منها على سبيل المثال مقالات للدكتور أحمد
زكي بك نشرها في مجلة الثقافة بعنوان « الأرض التي عليها
الروسيا » و « الأرض التي عليها اليابان » ، ومقالات في
موضوعات مختلفة للأستاذ ساطع الحصري . وهناك كتاب
غيرهما يصحّ أن نعتبرهم جميعاً طلائع البناء للمقالة العربية
المشودة .

صناعة النقد

في الادب العربي الحديث



يقبل العالم العربي على نهضة محدودة في التأليف ، مرجوة النمو والازدهار في المستقبل ، حتى تلحق بثيلاتها في البلدان الاوروبية .

وقد قيل ان مطابع مصر تخرج كل يوم كتاباً . ومن المتوقع في المستقبل ان تخرج كل يوم بضعة كتب . وإن أضيف الى ذلك نشاط سائر البلدان العربية كالعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشمال افريقيا ، آمناً أنا مقبلون على نهضة ثقافية عظيمة النتائج .

ومن الخير ان يبذل الجهد كله في تنشيط التأليف ، وتشجيع المؤلفين ، وتوجيههم برفق الى ما يحتاج اليه سواد القراء من علم وادب ، كي يؤدوا الرسالة على احسن وجه . ونحب ان نصرح بمسألة أشبه بمرض خفي يشعر به المريض دون ان يعرف حقيقة . ذلك ان الناس عادة يستكبرون

البدايات ، ويتنكرون لها وان كانت تنطوي على خير
ظاهر . وقد يكون ذلك من آثار البدادة او العصبية
او الفردية التي هي دور طبيعي من ادوار حياة الأمم .
فاذا ظهر في الناس كاتب حوقلوا وتعوذوا ولم يصدقوا
ان هذا المرء الذي يسير معهم ويعاشرهم ويحاكيهم في جميع
المظاهر يمكن ان يكون كاتباً حقاً . وكذلك الحال ان
ظهر بينهم شاعر او خطيب او أديب . ولذلك يسلطون
على المؤلف المسكين ألسنتهم محاولين ان يحوا ما ألف
سطراً سطرأ ، وكلمة كلمة ...

هذه حقيقة لا يُمارى فيها . ولكنها ، كما قلنا ، ظاهرة
طبيعية لدور من الادوار . فاذا ما كثر التأليف ، اختلفت
هذه الظاهرة وأخذ الناس يقابلون الكاتب الجديد بالفرح
والاستبشار ، او على الاقل ، بما يستحق من الترحاب .
ولكن هذه الظاهرة لا يجوز تركها تبثّ التخذيّل
والتثبيط الى ان تختفي من تلقاء نفسها . فطلائع المؤلفين
يجب ان يضاعف لهم الثواب ، لا خيبرهم هم فحسب ، بل
خير الاجيال التي تعقبهم . لا شك في ان العارض سيزول .
ولكن زواله يجب ان يتم في اقصر وقت ، لتقليل خطره
وتخفيف وطأته .

ومن يتولى هذا العمل ؟ يتولاه النقاد الذين يظهرون

مع المؤلفين في وقت واحد . فيقضون ببراعة نقدهم ،
ورجاحة عقولهم ، وشجاعتهم ، وعدالتهم ، على تلك الظاهرة
التي تطغى عادةً على فئات معرضة للفتنة والهوى .
فالنقاد يمكنهم ان يؤدوا خدمة عظيمة للمؤلفين ، او
على الاصح ، حياة الامة العقلية التي هي أجلّ حيواتها
واعظمها واخذها على الزمن .
ولكن لا يصح ان يتولى النقد كل شخص تحدّثه نفسه
انه بلغ مرتبة العدالة المطلقة والعلم الواسع والاشراف على
الحركة الفكرية والتوجيه لمختلف تياراتها . فالناقد يجب ان
تتوافر فيه شروط كي يستأهل هذه المكانة الممتازة .
وأول هذه الشروط وأهمها ان يكون الناقد في منزلة
يشرف منها على المنقود ، لا أن ينظر اليه من أسفل أو من
جانب . وأعني بذلك أن يكون متخصصاً ومتبحراً في موضوع
الكتاب الذي ينقده ، لا أن يكون من المؤلف في منزلة
التلميذ . فان كان الكتاب في التاريخ وجب أن يتفرّغ
لنقده مؤرخ ، وان كان في مبحث علمي وجب أن يتفرّغ
له عالم واسع الاطلاع على ذلك المبحث ، وإن كان في
الادب فأديب وهكذا .

وليس ثمة أدنى ريب في أنه كلما كان الناقد متبحراً في
الموضوع جاء فهمه للكتاب أتم وأوفى ، وكان في مركز

يؤمله لأن يصدر حكماً شاملاً لحسنات الكتاب وسيئاته .
وانه لمن الجور أن يتصدى لنقد كتاب شخص متطفل
على موضوعه ، همه أن يُشهر على حساب المؤلف ، أو ينتحل
مكانة « الاستاذة » ممن لا يلحق به . وقديماً كان الشويعرون
يتصدّون لهجاء الشعراء كي يلحقوا بهم . ولكن الشعراء
الاذكياء كانوا يفظنون لهذا الغرض فيقتاتون الشويعر
بالأعراض عنه .

ولكن خصلة المعرفة لها آفة تجعل الجاهل خيراً منها .
تلك هي الهوى . فالناقد إذا كان مغرضاً قلب الحقائق رأساً
على عقب ، وجعل من الحسنة سيئة ، ومن السيئة حسنة ،
ولا سيما إن كان عالماً في الموضوع . فهو لا يعدم وسيلة
للنيل من السكاتب . ويجعل همه الاحتيال على العلم للتشبيه
على القراء ، وتشويه الحقائق .

ونقد الجاهل خير من نقد العالم المغرض . إذ أن الجاهل
لا يلبث أن يكشف نفسه ويخني عليها . أما العالم فإنه
يستعين بوسع علمه لستر خبث طويته . ويجوز قوله على
الكثيرين ولا سيما متوسطي المعرفة .

حدثني صديق قال : « كنا في مجلس نتذاكر المؤلفات
الحديثة . فتصدى أحدنا لكتاب زاعماً أنه مسروق من مؤلف
سابق . فقال له أحدنا : ولكن من تزعم أنه سارق سبق

في التأليف ذلك الذي تزعم أنه مسروق . فأنكر المتصدي ذلك . فقام احدها واحضر الكتابين وأطلعاه على التاريخين . فلما رأى المتصدي ذلك راح يتهجم على الكتاب من ناحية أخرى . فعلمنا أنه ناقد مغرض يحتال للطعن من كل سبيل . « ومن ناحية ثانية يصعب على عامة القراء إدراك طويّة الناقد المغرض . فيدس لهم السم في الدسم مدلساً عليهم بالبحث العلمي وحرية الفكر .

ولهذا يجب أن يبذل كل جهد للحيولة دون النقد المغرض . وهذا أمر عسير . ولكنه يمكن في بعض الأحيان . وما لا يُدرك كله لا يترك جله .

وعلى ذلك فالمعرفة الجيدة والعدالة شرطان لا بدّ منهما للناقد . ولا يغني احدهما عن الآخر ، كما لا يغني عنهما شيء . على أن هناك صفات أخرى يحمل بالناقد أن يتصف بها . منها أن يكون ملماً بأصول النقد لا متخبطاً يطوّح بنفسه في بيداء مترامية الاطراف . فللققد قواعد لا بد من أن تراعى . منها ما يتصل بالنقد العلمي . وفي ذلك كتب تغني عن الاسهاب . مثال ذلك أن لا يطلب الناقد في الكتاب الأدبي نظريات جديدة . لأن الأدب ليس علماً . ولما الجديد في الأدب هو التعبير ، والتأثرات الشخصية ، والتجارب التي يحصلها الأديب نفسه . على أن الأديب ليس

ملازمًا بنهج طريق خاص . فله أن يكتب ؛ وإن أثارت كتابته شعوراً بالجمال ، أو تحليقاً في آفاق علوية ، أو متعة ونشوة ، فهو موفق . وإن لم يثر شيئاً من ذلك فأدبه عادي . أما العالم فمسئول عن المادة . وهو إما مضيف الى العلم جديداً ، وإما مبسّط لنظريات عويصة ، وإما جامع شتات آراء متفرقة . ولا يحاسب على لغته محاسبة الأديب . لأن اللغة عنده وسيلة ، وعند الأديب جزء من الغاية .

ويكون الناقد جائراً إن قصر نقده على عرض السيئات وحدها ، أو المحاسن وحدها . فكل مؤلف مهما علا في مرتبة الجودة والاتقان ، لا يمكن أن يبلغ درجة الكمال . ولكن قد ترجح الحسنات على السيئات ، أو السيئات على الحسنات . ومن واجب الناقد أن يشير الى الامرين معاً . والمؤلف يكون جيداً إن قلّت سيئاته ويكون رديئاً إن قلّت حسناته .

ويقتضي الانصاف أن يحتاط الناقد فلا يأخذ بناصية المنقود أخذ عزيز جبّار ، إلا حين تلزمه الضرورة أن يفعل ذلك . وهذا الموقف يكثر في نقد المؤلفات العلمية ، ويقل في نقد المؤلفات الأدبية . لأن العلم محصور في حدود واضحة المعالم ، والأدب غير محصور . وما ينبغي

ان يكون كذلك . وحين يدخل الادب في دائرة العلم يفقد خصائصه ومزاياه . ولذلك وجب على الناقد الأدبي أن يشير الى أنه يعبر عن رأيه الخاص ، وان لسائر القراء أن يخالفوه فيما ذهب اليه .

ولهذه العلة ايضاً يلزم الناقد أن يقصر نقده على آرائه هو دون تأثر بآراء غيره ، وإلا جاء نقده أشبه بثوب مُرَقَّع ، كل رقعة تنافر الاخرى . وإن شاء الناقد أن يعرض آراء مختلف القراء فعليه أن يشير الى ذلك كيلا يوهم أن له فهم عشرات الناس .

والنقاد بعد هذا يختلفون . فمنهم من يؤثر أن يتخذ جانب الصرامة . ومنهم من يؤثر أن يتخذ جانب اللين . ومنهم من يقف بين بين . ولا خير من هذا . وإنما الضير كل الضير ان يقسو حيناً ويرق حيناً آخر جرياً وراء الهوى .

وليس في جميع ما ذكر ما يحد من حرية الناقد . فالناقد له ذوقه الخاص وميوله الخاصة . وله ان يقول ما يشاء . ولكن حرية النقد حدوداً ، هي التي تجعل هذه الصناعة مصنوعة من العبث والزراية والفوضى . وليس ثمة شك في ان هدف النقد ينقلب رأساً على عقب ، ويصبح النقد ضاراً اكثر منه مفيداً إن تجرّد الناقد من المعرفة

والعدالة او الامام بأصول النقد ، وما الى ذلك من الشروط التي ذكرنا .

وكما ان التأليف في ذاته عمل صالح ، فكذلك النقد يجب أن يكون عملاً صالحاً . واذا كان التأليف بناءً فيجب ان يكون النقد بناءً ايضاً .

ورب من يقول : هذه شروط مثاليّة لا تتوافر في ناقد . ومن ذا الذي يأخذ نفسه بهذه الشروط ؟ قد يكون الأمر كذلك ، ولكن ليس التأليف الصحيح جهداً وعناء ورياضة شاقّة ؟ بل اذا جاز أن يترخّص في التأليف فليس يجوز مجال أن يترخّص في النقد .

ومن جهة ثانية نحن في دور بدائي في التأليف . ولذلك نحتاج الى نقاد اخيار تتوافر فيهم تلك الشروط كي ينشطوا المواهب ويوجهوها ، بل نحن بحاجة الى نقاد يبحثون عن المواهب في كل سطر وكل شطر ، وهم اقرب الناس الى المعرفة ، وابعدهم عن الهوى .

وناقداً واحداً من هذا الطراز يستطيع أن يحدث في الحياة الثقافية أحداثاً جليّة . بل يستطيع ان يكون خالقاً . وهذه أبرز صفات صاحب الفن .

هل ظهر في فلسطين أدب وأدباء؟

قال لي احد المشتغلين بالدراسات العربية من الاجانب :
لقد اردت ان اكتب فصلاً عن الحياة الادبية في فلسطين ،
فبحثت هنا وهناك ، فلم أعثر على اديب عربي . فهل معنى
ذلك ان فلسطين لم تنتج ادباً في تاريخها القديم والحديث ؟
ولم يكن الرجل يتكلف الهزل ولا الجحود حين وجه
اليّ سؤاله . ولكنه بحث - على ما يظهر - عن كتاب
في هذا الموضوع فلم يقف له على اثر ، فتوهم ان تربة هذا
الوطن الغالي افقرت من الادب والادباء ...
ولست اقصد الحشو حين اردف كلمة ادب بأدباء .
ولكنني اود ان امايز بين الادباء الذين عاشوا في فلسطين
والادباء الذين ولدوا فيها ورحلوا عنها .
وظاهر ان فلسطين لم تكن في تاريخها القديم وحيدة
مستقلة عن شقيقاتها المجاورات . فمنذ الفتح الاسلامي الى
العصر العثماني وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بقطر من الاقطار

الجاورة . ولذا كان ادباؤنا ينتقلون من قطر الى آخر ،
واكثرهم قصد مصر واتخذها وطناً ثانياً حتى عُمد من ادبائها .
ولست في سبيل الاحاطة بتاريخ البلاد الادبي . ولكنني
اشير الى بعض الادباء الذين ظهروا في عصور متعاقبة لأضع
امام سائلي الفاضل شواهد صدق على ان التربة الفلسطينية
لم تكن مجذبةً في عصر من العصور .
واول من اذكر الكاتب الشاعر ابو الفتح محمود بن
الحسين كشاجم الرملي ، نسبةً الى الرملة البيضاء الواقعة
قرب مدينة يافا ، المتوفى في حدود سنة ٣٥٠ هـ . وقد
قسم ايامه بين مصر والرملة وحلب . وكان شاعراً لاي
الهيحاء ولابنه سيف الدولة الحمداني . ومن آثاره المطبوعة
ديوان شعر ورسالة طريفة في ادب الندماء ولطائف الظرفاء .
ويعني احد الفضلاء في بيت المقدس بتحقيق مخطوط له في
المصايد * .

ويروى ان كشاجم اقام في مصر مدة فاستطاعها ، ثم
رحل عنها فكان يتشوق اليها . ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقي الى مصر يؤرقني

فالآن عدت وعادت مصر لي دارا

* اخبرني الدكتور اسعد طلس انه نسخ هذا الكتاب في اثناء
مقامه في ايران وانه يرجو نشره .

وظهر في غزة شاعر فحل من طبقة المتنبي هو ابو اسحق الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ هـ . وقد جاب بلاد الشام والعراق في طلب العلم ، ودرس في المدرسة النظامية في بغداد . ثم قصد المشرق واقام فيه متنقلاً ما بين خراسان وكرمان الى ان ادركته المنية في بلخ وتوفي فيها .
ولابي اسحق ديوان مخطوط منه نسخ في المكاتب الأوربية

ومصر والقسطنطينية . وأطلعني فضيلة الشيخ راغب الطباخ

في مدينة حلب على نسخة منه * . ومن العجيب أن يسرق

شعره ويُنسب للشاعر الابيوردي في ديوانه المطبوع ، ويتنبأ

هو بذلك في أبيات طريفة يرويها ابن تغري بردي (النجوم

الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٦) قال :

قالوا هجرت الشعر ، قلت ضرورة

باب البواعث والدواعي مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى

منه النوال ولا ملبح يُعشق

ومن العجائب أنه لا يُشترى :

وُيخاف فيه على الكساد ويُسرق !

وفي كتاب مواسم الادب وآثار العجم والعرب للسيد

* علمت أن معالي الأستاذ خليل مردم بك يقتني نسخة من هذا الديوان
يعدّها للطبع .

جعفر العلوي ، ومختارات سامي باشا البارودي طائفة من شعره .

وله أبيات سائرة تشبه حكم أبي الطيّب منها :

— ما مضى فـات والمؤمل غيب

ولك الساعة التي أنت فيها

— وأطيب الارض ما للقلب فيه هوى

سمّ الحياط مع الاحباب مَيِّدانُ

ولعلّ أكبر شخصية عرفت بها البلاد الفلسطينية شخصية

القاضي الفاضل المولود في عسقلان سنة ٥٢٩ هـ . ويحار القلم آية

ناحية من شخصية هذا الرجل يتناول ؟ أيتناول أدبه ورسائله :

يتلقى الملوك في كلّ أرض كتبه القادِمات بالتعظيم

أم يتناول سياسته وفراسته :

تشير على الاسلام منك فـراسة لها حزم طبّ واحتراز منجم

أم يتناول عطفه على العلم والعلماء وجمعه الكتب من

أقطار الارض ، ومدرسته الفاضلية التي كانت من أعظم

مدارس القاهرة واجلّها ، وأوقافه العظيمة على وجوه

الحيرات ؟ وحسبه شهادة السلطان صلاح الدين فيه : « لا تظنوا

أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل » .

ومن طريف ما يروى أنه زرع في أرض له عُرفت

بمنشأة الفاضل عنبا اشتهر حتى ان الباعة كانوا يصيحون

بعد وفاته « رحم الله الفاضل ! يا غيب ! » .

وولد في صفر سنة ٦٩٦ صلاح الدين خليل بن أيبك
الصفدي . وطلب العلم في دمشق فأخذ عن ابن نباتة وابن
سيّد الناس وابن جماعة والمزي . وكان صديقاً للذهبي
والسبكي . وقد تولى أمانة السر في بلده صفر ثم في
القاهرة فحلب . وتولى في أواخر أيامه وكالة بيت المال
في دمشق ، وفيها توفي سنة ٧٦٤ هـ .

وبلغت مؤلفاته خمسمائة مجلد بروايته هو . منها كتابه
الضخم النفيس الوافي بالوفيات في ثلاثين مجلداً ؛ ومسالك
الأبصار في بمالك الأمصار ؛ ونكت الهميان في نكت
العميان الذي نشره المرحوم أحمد زكي باشا ؛ والشعور بالعور* ؛
وديان الفصحاء وترجمان البلغاء ، والغيث المنسجم في شرح
لامية العجم ، الخ . . .

ومن الأدباء الفقهاء شيخ الاسلام شهاب الدين الرملي
المتوفى سنة ٨٨١ هـ . وقد أخذ عن القلقشندي في بيت المقدس
وأقام في الرملة وبيت المقدس ويافا حيث عمّر برجاً على
جانب البحر .

ومنهم أبو اليعمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين العليمي
المولود في بيت المقدس سنة ٨٦٠ هـ ، صاحب « الأنس

* رأيت هذا الكتاب في مكتبة صديقي الاستاذ احمد سامح الخالدي في
بيت المقدس وأسأل الله ان يكون ناجياً من النهب .

الجليل بتاريخ القدس والخليل .

ومنهم مرعي بن يوسف الكرمني (نسبة الى طولكرم من قرى نابلس) . وقد طلب العلم في القاهرة صبيّاً ، وتوطنها وتصدر للافتاء في الجامع الأزهر ، ثم تولى المشيخة في جامع السلطان حسن . وهو يجمع بين الفقه والتاريخ والأدب . وترك حوالي سبعين مؤلفاً جلّها مخطوط ، من جملة ديوان شعر له .

وولد بيت المقدس سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤) باحث أديب هو روهي بك بن محمد ياسين الخالدي . وقد طلب العلم في بلاد الشام ثم في الاستانة فباريس . وتولى مناصب سياسية وعلمية عالية . فكان محاضراً في جمعية نشر اللغات الاجنبية في باريس ، وقنصلاً جنرالاً للحكومة العثمانية في بوردو ، فنائباً في مجلس المبعوثين في الاستانة .

كان روهي من اوائل من طلب العلم في فرنسا ، ومن زعماء النهضة الحديثة . وقد ترك مصنفات تشهد له بالألمعية وعمق البحث . منها كتاب « علم الأدب عند الافرنج والعرب » الذي تولت نشره دار الهلال في القاهرة ؛ و « العالم الاسلامي » ؛ و « الانقلاب العثماني » ؛ و « رحلة الى الاندلس » ؛ ورسالة في ترجمة بوتلو العالم الكيمياوي ؛ ورسالة في علم الكيمياء عند العرب وكيف انتقل الى الافرنج ؛ وتاريخ الشرق

وامرائه ، وكتاب علم الالسنه في مقابلة اللغات ، وهو كتاب نفيس في بضعة مجلدات * .

ومن أسرة الخالدي الرحالة الباحث الشيخ خليل الخالدي الذي توفي في القاهرة قبل بضع سنوات . وما تزال مجالسه وأحاديثه ماثلة في أذهان علماء البلاد العربية وادبائها . وقد وقف الشيخ حياته على جمع المخطوطات العربية ومراجعتها والتحدث عن نواذرها في مجالس العالم في مصر والشام . وعرفت البلاد في تاريخها الحديث عدداً من الشعراء منهم الشيخ علي الريماوي (نسبة الى قرية بيت ربما) ؛ والشيخ ابو الاقبال اليعقوبي اليافي الذي عرفته مصر لكثرة زيارته لها ؛ والشاعر الشاب ابراهيم عبد الفتاح طوقان من مدينة نابلس .

ولعلّ ابراهيم - رحمه الله - تفرّد بانقطاعه الى الشعر في حين كان سائر الشعراء فقهاء وشعراء في وقت واحد . ولد ابراهيم في مدينة نابلس سنة ١٩٠٥ . ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت ودرّس فيها مدّة ، ثم تولى إدارة « مصلحة الاذاعة الفلسطينية » منذ تأسيسها الى قبيل وفاته سنة ١٩٤١ .

* رأيت هذا الكتاب ايضاً في مكتبة صديقي الاستاذ احمد سامح الخالدي في بيت المقدس وأسأل الله أن يكون ناجياً من النهب .

كان ابراهيم شاعراً مطبوعاً ، لم يقل الشعر رغبةً أو رهبةً ، وإنما قاله وهو طالب في المدرسة ، ثم في أثناء عمله في الجامعة والاداعة ، وفي فترة بين هذين العاملين كان فيها طليقاً من قيود « الوظيفة » . وكان شعره من وحي النفس ، يعبر عن انفعالاته النفسية تعبيراً صريحاً صادقاً . يقول الشعر الوطني في المناسبات السياسية ، ويقول الشعر الهجائي في بعض المناسبات تفريجاً عن غم أو كرب ، ويقول الشعر الغزلي إجابة لدواعي عواطف أصيلة .

وأظهر ما تميز به شعره السلاسة والعدوبة شأن الشعراء المفطورين . وكان رفيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، دقيق الاحساس ، فاجتمع له أولاً الملكة الشعرية ، وثانياً النفس المهيأة للانفعالات الخارجية ، وثالثاً الأسلوب القوي المطاوع ، ورابعاً الغنى عن الناس والترفع عن مدهانتهم ؛ فبلغ شعره الغاية في التعبير عن صادق العواطف . ولو مد الله في أجله لوصل شعره بشعر عمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيّات . ولكن المنية اختزمتها وهو في ريعان الشباب ، فانقطع بوفاته نسب أدبي يرجع الى القرون الاسلامية الأولى . هذه لمحة في تاريخ بعض الشخصيات التي عرفتها البلاد الفلسطينية . وهو شاهد على أن البلاد لم تكن عقيمة في دور من أدوار حياتها .

وأود قبل الختام أن أشير الى أمرين : الاول ان هذه
اللمحة لا يصحّ ان تحمل على أنها من نوازع الاقليمية .
والثاني أن فضل مصر على أكثر من ذكرت أوضح من أن
يحتاج الى زيادة بيان . ولا ريب في ان المعول بعد الملكة
على التثقيف والتوجيه والبيئة الملهمة * .

* أعد المؤلف دراسات وافية تناولت من ورد ذكرهم في هذا
المبحث وكثيرين غيرهم لتنشر في كتاب ، ولكن جميع هذه الدراسات
ظلت في مكانها في بيت المقدس صانها الله .

أساتيد وأساليب

قال مرة أحد المشتغلين بالتربية والتعليم : لست واثقاً من مدى الفائدة التي يقدمها علم النفس الى التعليم . وأغلب الظن أن المشتغلين بهذا العلم يغالون في تقويم هذه الفائدة . وما يزال علم النفس ، في رأيي ، مترجماً بعيداً عن الاستقرار . وحين سُئل علام تعول إذن ، أجاب : أُعوّل أولاً على التجربة ، فالمعلم الناجح يستوحي من تجاربه أضعاف ما يستوحي من ذاك العلم . ولذا أكره تحديد الأساليب في التعليم وأوثر أن يذهب كلُّ معلم المذهب الذي يروقه على ان لا يكون في ذلك تجاوز للحدود المعقولة .

ذكرتني هذا الرأي بمثل في اللغة التركية مؤداه « معلم قديم وكتاب جديد » . اي ان خير ما ينهض بالمدرسة أن يكون المعلم مجرباً واسع الاختبار ، وان يكون الكتاب الذي بين ايدي الطلاب حديثاً يعرض المادة المقررة بأسلوب مشوّق .

وسواء اصحّ هذا الرأي ام لم يصحّ فلا شكّ في ان الاختيار ينبوع من أفضل ينباع التي يستقي منها المعلم الأساليب . ويظلّ القول إنّ المعلم القديم المجرّب افضل من المعلم الجديد قليل التجربة قولاً صائباً . والمهمّ ، على كل حال ، ان يتحلّى المعلم القديم بالمرونة ومتابعة الدرس والاستفادة من كل جديد .

*

لقد تيسّر لي الدرسُ على عدد من المعلمين والأساتذة ذوي الشهرة في موضوعاتهم . وحين يمرّ احدُهم بالخاطر يُقرن بالأسلوب الذي اتبعه في التدريس والتوجيه . ويمكن في هذه المرحلة من العمر تحديد الفائدة او الفوائد التي رسخت في النفس من هذا الاستاذ او ذاك ، بل يمكن ان تُردّ الى كلّ الناحية التي برّز فيها والأثر الذي خلفه وراءه . وإن لم تجمع من هذا العرض التاريخي فوائد ذات قيمة في الأساليب ، وخاصة في اسلوب تدريس اللغة العربية ، فلننوّ فيه صوراً لشخصيات مختلفة بعضها اصبح جزءاً من التاريخ . وليس القصد العودة الى زمن الطفولة . فذاك عهد بعيد ، واثره غير عميق — من الناحية المقصودة من هذا البحث — كما انه لا حاجة الى الوقوف عند كلّ معلم . وسنقتصر على نفر تميّز بميزة خاصة ، عارضين الاسماء بالترتيب التاريخيّ

دون تمييز او تفاضل .

*

تولى المرحوم الاستاذ محمد إسعاف النشاشيبي تدريس العربية في المدرسة الرشيدية في بيت المقدس في بدء الاحتلال البريطاني . ولم يكن النشاشيبي معلماً بالمعنى الصحيح إذ لم يتخرج في دار المعلمين ولم يحصل علمه بانتظام بل حصّله بجدّه وعلى طريقته هو الخاصة . ومع ذلك فقد غادر في تلاميذه أثراً لن يُحصى لاسباب ثلاثة : الاول شخصيته التي ظلت متميزاً بها دون سائر ادباء عصره . والثاني حماسه للعربية حماسه تكاد تكون منقطعة النظير . والثالث تعمقه في درس اللغة - ادباً وقواعد - هوى وطبعاً لا صنعة وتكلفاً . ولذلك لم يسر على منهج معين ولم يتقيّد ببرنامج موضوع بل كان هدفه تحبيب اللغة الى الطلاب وتشويقهم إلى ادمان القراءة في كتب الادب القديم ، فحقق هدفه في اكثر الذين تتلمذوا عليه حتى اولئك الذين كانت ميلهم الى العربية ضعيفاً . والحق ان حماسه المعلم تؤثر تأثيراً قوياً في الطلاب لا سيما ان رُزق الآلة المؤدية الى نقل حماسه اليهم كقوة البيان ومتابعة التوجيه والشعور بأن التعليم احتساب لوجه الله لا مهنة للارتزاق .

ولا اذكر ان النشاشيبي عين حصصاً لمختلف

الموضوعات . فقد كان يدخل الصف متأبطاً كتابه فيدرك الطلاب المقصود ويفتحون كتبهم المطبوعة . وكانوا ملزمين بحمل كتب اللغة جميعها ليكونوا متأهبين لتلبية رغبته . وكانت له نظرية خاصة وهي ان علوم اللغة جميعها متداخلة ، والغرض منها تذوق الادب او ان يصبح الطالب اديباً . وهذا مذهب لا يتفق فيه جميع المعلمين المحدثين . اذ ان اكثر المعلمين اليوم على ان اللغة وسيلة لفهم المقروء والتعبير الدقيق عن الافكار . ومن المعلمين من يُقصر على ما هو دون ذلك ذهاباً الى ان جل الطلاب - او عدداً كبيراً منهم على الأقل - يطلب صناعة لا تحتاج الى بيان ، وان نسبة من يدخل البيان في صناعاتهم ضئيلة .

اما وسيلته الرئيسية فكانت تدريس كتب الادب القديم وتفريع سائر موضوعات اللغة عنها . فكان يجمع نصوصاً شعرية ويملئها على الطلاب بقراءته الخاصة ثم يعقب بشروح لغوية كشروح القدامى مدخلاً الشرح اللغوي والبياني حينما يرى ذلك . وكان جلّ اعتماده على كتاب الحماسة لابي تمام وبعض القصائد والمقطوعات الشبيهة به من حيث المتانة . وكان يُعري الطلاب بحفظ المنتخبات وقراءتها على نط قراءته . ولم يُعيّن في المنشور كتاباً خاصاً . ولكنه كان يجمع 'تفهماً' اشبه بالنوادر من الكامل للمبرّد والبيان والتبيين

للجاحظ والعقد لابن عبد ربه . وفي وقت ما اقرأ القرآن الكريم معتمداً على تفسير الزمخشري لمنحاه اللغوي . ولم يتعرض قط للتفسير الديني . وحين رأى ضرورة تدريس القواعد جمع شواهد من المفصل للزمخشري وأملأها التزاماً لمذهبه في ربط القواعد بالنصوص . ولم يُعْنَ بالانشاء الا نادراً - وربما تملّحاً ومداعبة لبعض المبرزين من طلابه - اذ كان رأيه ان الاسلوب يعتمد على ادمان القراءة في كتب الادب القديم ، ولا بد من مرور وقت قبل ان يصبح للقارئ أسلوب عربي فصيح ؛ وربما يمضي اكثر العمر قبل ان ينضج الاسلوب ، وعندئذ على المرء ان يدرك - ولو متأخراً - انه لن يكون كاتباً . وكان من رأيه صرف وقت الدرس كله في القراءة وحفظ عيون الادب ، ومن ثم ان طاعت السليقة وفاقت القرينة جاء الاسلوب الذاتي . وكان هذا الاسلوب الذاتي أحب شيء اليه . وكان ينعت اساليب الكتاب المقلدين - وما اكثرهم في نظره - بالانتحال ، فيقول مستشهداً : لو قلت لألفاظ فلان عودي من حيث جئت لما بقي في مقاله شيء . وقد تشدد هو في أسلوبه تشدداً جاوز الحد ، وكانت اقواله ترصع بالنوادير والشواهد المقتبسة حتى لا يبقى له من الكلام الا اقله . وحين يتستر على القراء بالتواقيع المستعاراة ينطلق مع

سجيته ويقل من قوله .

والحق أنا نظمه كثيراً إن عددناه في مرتبة المعلمين وأخذناه بالاحكام الحديثة . فقد كان اديباً قبل ان يكون معلماً . وكان فهمه الادب على نحو خاص يلتئم مع مزاجه ودراسته الذاتية العتيقة . وكان تعليمه أشبه بالتأديب المعروف في العصور العربية القديمة . ومع ذلك فقد بلغ تأثيره في طلابه حداً لا يبلغه كثير من المعلمين المحدثين . وما زال طلابه الى اليوم يروون الشواهد والمختارات التي كان يملئها عليهم . ذلك انه كان صاحب مذهب في التعليم آمن به واخلص له مع غيرة متناهية وحماسة عظيمة وعلم واسع . وان حوكم بالنتائج لانستطيع ان نزعّم انه اخفق ، مع أنا نخالفه في كثير من الاصول والفروع .

*

ودرس العربية في الكلية الانجليزية في بيت المقدس المرحوم الاستاذ نخلة زريق . وكان يومئذ استاذاً قديماً ذا شخصية بارزة وطلعة مهيبة وهندام عربي جذاب واعتداد بالنفس وعلم غزير وحماسة للغة تتجلى في تدريسه ومجالسه الممتعة . وهو شبيه بالنشاشيبي من جملة نواح ، ولكنه يمتاز بانه معلم أكثر منه اديباً ، والنشاشيبي أديب أكثر منه معلماً . وقد درس في لبنان وعكا وبيت المقدس

وتولى مدةً الاشراف على قسم المعلمين في مدرسة صهيون .
وتخرج على يديه عدد كبير من الاساتذة والمربين . وحين
تولى التدريس في الكلية الانجليزية كان شيخاً طاعناً في
السن بمعوداً فزاد ذلك من جلاله وأورثه في الوقت نفسه
حدة جارحة مشوبة بتهكم لاذع .

كان زريق يسير في تدريسه على اسلوب القدماء ، يختار
النصوص الأدبية ويمليها على الطلاب بفصاحة لسان وعذوبة
نطق وإنشاد لا اعرف احلى منه . وكانت أماليه من
الأدب العربي القديم ، غير متقيد بكتاب أو عصر ، وكانت
تبلغ من الروعة حدّاً يهزّ المشاعر . ومن هذه النصوص
يتفرّع الدرس ، فيتنقل من القواعد الى الاملاء الى الصرف
فالنحو فالبيان حسب مقتضى الحال ومستوى الطلاب .
وكان يكثر الاستشهاد من الشعر والقرآن الكريم اعتقاداً منه
ان طلابه المسلمين يستظهرون القرآن . وكانت هذه الدراسة
الأدبية تقع احياناً في حصص اللغة و احياناً في غير حصصها ،
إذ كثيراً ما كان يجمع الطلاب من الغرف وساحة الكلية
ويضمهم في غرفة ثم يُلقى الدرس ساعة او ساعتين لوجه
الله والعلم .

أما القواعد فكان معوّله فيها على كتاب فصل الخطاب
للمشيخ ناصيف اليازجي ذي المتن الموجز والحواشي الجامعة .

ولم يُعَوَّل على كتاب آخر في هذا الموضوع أو غيره .
وكان منهجه ان يقرأ النص ثم يشرحه مكثراً من الشواهد
من عيون الادب . وكانت عنايته بالصرف مقدمة على عنايته
بالنحو . وهو محقّ في هذا . لان العناية بالنحو وخاصة
الاعراب كانت تطفئ على ما عداه في حلقات الشيوخ التي
كان يرتادها . ولذا كان يلاحظ هذا النقص في الطلاب
فليشبعهم صرفاً .

أما الانشاء فكانت عنايته به أشدّ من عناية صديقه
النشاشيبي دون تشدّد وتحرّج ، فحَسَبُ الطالب أن يحسن
التعبير بأسلوب سهل دون خطأ . وإذ كانت صحته وشيخوخته
لا تعينان على التصحيح في البيت فقد كان يُقرئ طالباً
موضوعه في الصف ويُعالج أخطاءه اللغوية غير متعرض
للافكار والأسلوب إلاّ نادراً . وفي أثناء هذه المعالجة
يتبسّط ويتندر ويستطرد ما شاء . واذكر أن طالباً مصرياً
قرأ مرة مخرجاً الجيم من الحنك - كما هو نطقها في اللهجة
المصرية - فغضب الاستاذ ونهره . ولكن الطالب لم يستطع
التغلب على لهجته . وهنا ثار قائلاً : قل لي - يا هذا -
كيف تنطق كلمة بونجور الفرنسية ؟ فأجاب الطالب :
أنطقها بونجور - بالجيم الشامية - فقال له فوراً : سبحان
لله ! كيف تحسن نطق الجيم المعطشة - الشامية - في تلك

الكلمة الفرنسية ولا تُحسنها في العربية ؟ فافهم الطالب
وصار يتحسّب في قراءته .

ودرج على إلقاء أحاديث عامة صباح كل جمعة . ولم
يكن الطلاب يتشوقون شيئاً كتشوقهم أحاديثه هذه . فقد
كان يفتنهم بعباراته الرصينة ونصائحه ونوادره . وكان يقصد
تغوير الروح القومية في نفوسهم وترغيبهم في لغتهم وأدبهم
وبث الكرامة والكبرياء أيام كانت نفوسهم تفور بالحماسة .
ولا أعرف تلميذاً من تلاميذه إلاّ ذا كراً إياه بالخير مشياً
على غيرته وعلمه مغتفراً تنكّيته وتبكيته على قسوتها أحياناً .

*

وكان الأستاذ رَسِلُ جُولْت - الذي تولى العمادة فيما
بعد - يدرّس علم الأخلاق Ethics في الجامعة الاميركية
في القاهرة . كان يعرض مبادئ الاخلاق والدين عند
أصحاب المذاهب الدينية من كنفوشيوس الى المصلحين
المحدثين . ولم يكن يعوّل على كتاب بل كان منهاجه أن
يعرض المادة ثم يناقش الطلاب فيها ويكلفهم كتابة مباحث
في نقدها بحرية وصراحة . وكانت الفائدة تأتي من هذا
النقد ، إذ كان يناقش صاحب كل مبحث محاولاً أن يوسع
آفاق تفكيره ، وأن يعوّده وزن الآراء وتركيزها
والوصول الى نتائج سليمة . وكان أحب شيء اليه أن يرى

أصالة التفكير والاتجاه العلمي دون إسراف . ولم أره غاضباً
او معتفياً لاختلاف الآراء . بل كان يسره أن يتمسك
الباحث برأيه ويدافع عنه بالحجة وان جاء مناقضاً لرأيه
الذي عرضه في الدرس . ولم أره متعصباً لمذهب من
المذاهب او محاولاً الطعن في أحدها أو متعرضاً للعقائد
الدينية بسوء ، وكان في صفه المسلم والمسيحي والموسوي ،
وهو منجى يحتاج الى حصافة وحلم وسعة ادراك . وكان
الرجل متحلياً بهذه الصفات أصالة لا تكلفاً .

وجاء هذا الدرس في وقت كانت فيه مواهب الطلاب
كالبراعم المشرفة على التفتح ، فكان اشبه بالطلّ في إبان
الربيع . ولا غرو إن جنى منه الطلاب فوائد عزّ نظيرها
في سائر الدروس والمحاضرات .

وتتجلى قيمة هذا التوجيه - او الانماء العقلي - لمن درس
مثلي في اعقاب العهد العثماني في مدارس لا اثر فيها للنشاط
الفكري ، وفي مدارس الفرير المشهورة بنظمها القاسية
وحدها للاجتهاد الذاتي والحرية الفكرية مع امتيازها بتعزيز
المعارف . ولسنا في سبيل التفاضل بين النظم المدرسية في
مختلف البيئات . فالمنصف لا يسهه إلا الاعتراف بأن لكل
نظام محاسنه ومساوئه . ولكن ما لا بُد من تقييده ان
الاستاذ جولى نحا في تعليمه منجى كانت فائدته - من

حيث التوجيه وبناء التفكير السليم وتنمية الحرية الفكرية -
فوق كلّ فائدة . فالمعلومات التي 'يحصلها الطالب' في المدرسة
لا تُقصد لذاتها بل لنتائجها في تسديد الفكر وتنميته . ولا
أحد يستطيع ان يصون معلوماته في وعائها مع مرّ الزمن .
والمعول عليه في التعليم الرواسب الذهنية والنفسية المكوّنة
للشخصية والمعيّنة على اكتساب المعارف وتنسيقها - في مرحلة
ما بعد المدرسة - وعرضها عند الحاجة بدقة ووضوح .
وقد بلغ الاستاذ جولت في الجامعة أبعد شأو في هذا
السبيل ، وأدّى رسالة التربية الحقة أحسن أداء .

*

وكان الاستاذ كارلو نلينو الايطالي استاذاً زائراً في كلية
الآداب في الجامعة المصرية - جامعة فؤاد اليوم - وكان
موضوع محاضراته تاريخ اليمن قبل الاسلام يُلقبها بعربية
فصيحة سليمة من اللحن والعجمة . وقصر هذه المحاضرات
اربعة سنوات متوالية على عرض النصوص الواردة في المصادر
اليونانية والعربية ونقدها . ومع ان الموضوع ضيق وجاف
فقد كانت فائدته عظيمة للغاية . ذلك ان الاستاذ قصد
تعويد الطلاب البحث العلمي ونقد المصادر بطريقة عملية ،
فقداهم خطوة خطوة في سفر التاريخ الحافل ، وعرض عليهم
القلم الرئيسية فيه ، ووضع ايديهم على المسادة الاصلية في

كلّ مصدر والمادة المنقولة ، وما شاب الروايات من تحريف
وتصحيف . ولضيق الموضوع تمكّن من حصر الاخبار اليمينية
وردها الى اصولها متدرجاً من القديم الى الحديث . واستطاع
بهذا الاسلوب ان يرسخ في اذهان الطلاب قواعد البحث
العلمي والنقد التاريخي . فعلم مثلاً ان المصادر متسلسلة في
الزمن ، وانه لا يجوز الاعتماد على مصدر ثانويّ مع وجود
المصدر الاوليّ ، ولا يجوز التسليم بقيمة الرواية التاريخية
قبل التثبت من سندها ، اهي رواية عيان او سماع او نقل
اوليّ ام نقل غير اوليّ ، ثم ما غرض الراوي اهو مقرر
حقيقة ام متولّف ام داعية الخ ...

وإذا حكم على المحاضرات من حيث الكمّ كان شأنها
هيناً ، وإذا حكم من حيث النوع كان جليلاً للغاية ، إذ
استطاع الاستاذ في ختام المحاضرات أن يسلم كل طالب
« مسطرة » يقيس بها مصادر التاريخ بالدقة التي تقاس بها
المسافات . ومن المعلوم أن النقد يدخل في أكثر المباحث
العلمية والادبية والتاريخية والمشاهد اليومية على السواء .
ومن أجل ذلك تعظم قيمة هذه النتيجة في حياة المرء ،
دارساً ومؤرخاً ومشاهدّاً .

ومن جهة اخرى فان تاريخ العرب من أوسع التواريخ
وأغناها مصادر واكثرها اضطراباً ، وليس من النادر ان

تجدد في المصدر الواحد روايتين متناقضتين حول عَلم واحد
وحادثة تاريخية واحدة . ومن اجل ذلك أيضاً كان النقد
آلة لا غنى عنها للوصول الى الحقائق التاريخية جهد المستطاع .

*

ودرس الاستاذ أحمد امين في الكلية نفسها عدداً من
الموضوعات . وسلك في تدريسه منهجاً ذا طابع خاص
يؤدي الى الغاية نفسها التي وصل اليها الاستاذ نلينو ، مع
اختلاف كبير بين الاستاذين .

كان الاستاذ يُعِدّ محاضراته ويدوّنُها في كراريس .
ولم أره مرة يدخل غرفة المحاضرات دون ان يكون كراسه
بيده . ولكنه لم يعتد القراءة من الكرّاس - كما يتبادر
الى الذهن - بل كان ينظر الى الكرّاس من حين لآخر ،
ثم يعرض نقاط الموضوع نقطة نقطة بتسلسل منطقي مركز .
وكثيراً ما كان يُقدم للبحث بسؤال ، ثم يتولى الاجابة
عنه بنقاط . ويسير على هذا النحو حتى يستوفي عناصر
الموضوع . ثم ينتقل الى موضوع آخر الى ان يستوفي
البحث المقرر . وكان حديثه او القاؤه هادئاً فيه أناة
ووقفات يستريح اليها الذهن . وكان يُثير في مستمعيه
التفكير ويشركهم معه في البحث ويتقبّل أسئلتهم ويجيب
عنها . وان جاء السؤال خارجاً عن الموضوع او متعلقاً

ببحث سابق لأوانه يستعمل السائل الى حين يبلغ ذلك
البحث . ولم يكن يفرط بنقطة واحدة في صلب الموضوع ،
فكان درسه عقد ذو حبات معدودات يورد الحبة بعد
الآخرى متمهلاً بعد كل حبة حتى يأتي عليها جميعها دون
ان يمل .

درّس فيما درّس النقد الادبيّ ، والحياة العقلية - وهي
التي تبلورت بعد في كتابه فجر الاسلام - ، فبدأ في النقد
بمعنى الكلمة لفظاً واصطلاحاً ، ثم بمعنى لفظه أدب ، متسلسلاً
من القديم الى الحديث ، جامعاً بين مذاهب العرب
والافرنج ، ثم بعرض مبادئ النقد مع أمثلة من الأدب
العربيّ . ومن المعلوم ان النقاد الاوربيين تفنّنوا في هذا
البحث وسلّكوا فيه نهجاً يخالف نهج القدامى ، فماذا فعل
الاستاذ ؟ قرأ كتب النقد باللغة الانجليزية وقرأ آراء قدامى
العرب ، وخرج من القراءتين ببحث شامل . ولكنه جعل
جلّ اعتماده على آراء الاوربيين وجلّ أمثلته من الادب
العربيّ . ومن يعرف ان الاستاذ تخرج قاضياً لا مدرّساً
أدرك ما بذل من جهد كي يخوض هذا البحث . وربّما
القت شخصيته ضوءاً على محاضراته . إذ هناك شبه كبير
بين صنيعة قاضياً وصنيعة مدرّساً . فقد كان يدرس القضية
العلمية او الادبية جامعاً شتات عناصرها من مختلف المصادر ،

ثم يعرضها وحدة جامعة مانعة - على حدّ تعبيره - بأسلوب
متزن هادىء دون ان يترك مجالاً لنقض او استئناف . ويبدو
انه كان يفرض جميع انواع الاسئلة ويحيب عنها في صلب
المحاضرة . واسئلته الكثيرة التي كان يتكئ عليها في اثناء
المحاضرة تؤيد ذلك . وكان بوسع الطالب الذي يدوّن
المحاضرات ان يخرج في ختام السنة بكتاب مقسّم الى
ابواب ، وكل باب الى فصول ، وكل فصل الى عناصر
منسقة تربطها لجة قوية .

وللدلالة على تمكن هذه الطريقة المنطقية المركزة في
محاضراته - ومؤلفاته بعد - اروي الحادثة التالية . ألقى
محاضرة في المؤتمر الثقافي الاول في بيت مري دون ان
يحمل ورقة . وظنّ الناس - وربما لا يزالون يظنون -
انه ارتجل المحاضرة . وفي مساء ذلك اليوم جاء اليه من
يطلب خلاصة المحاضرة للحفظ . فما كان منه الا ان اخرج
اوراقاً من جيبه ودفعها اليه قائلاً : هذه هي المحاضرة .
ودُهِش الطالب وسأل : وهل استظهر الاستاذ محاضراته ؟
فأجاب : لا . ولكن من عادتي ان احصر نقاط الموضوع
وانسقها ، وعندئذ القيتها مع تغيير يسير في الالفاظ لا يؤثر
في الجوهر . ومن يسمع الاستاذ محاضراً يدهشه توارد
الافكار في تسلسل منطقيّ وخلو عبارته من الحشو كأنه

يلقي من ورقة بين يديه . وهكذا كان في محاضراته في
الجامعة .

*

ودرس الأستاذ ه . ا . ر . جب العربية في مدرسة
الدراسات الشرقية في لندن . وكان منهجه يشمل ترجمة
نصوص شعرية ونثرية من العربية الى الانجليزية . اما الشعر
فكان من اختيار العلامة الالماني نولدكه . واما النثر فكان
من القرآن والمقامات البديعية وروايات الاغاني ثم مقدمة
ابن خلدون . ويشمل محاضرات في الادب العربي والتاريخ
الاسلامي .

ولم يكن القصد من الترجمة سوى التثبت من فهم النص
العربي . وهنا تتجلى احدى مزايا الدرس - ودرس العربية
خاصة - في الجامعات الاوربية . فالعربي يتوهم حين يقرأ
النص القديم انه فاهم ما يقرأ او اكثر ما يقرأ . والترجمة
هي التي تصحح رأيه . ويتبين له بعد طول الاختبار ان
اللغة العربية لغات لا لغة واحدة ، وان كثيراً من الفاظها
وتراكيبها تطورت حتى يصح ان يوضع لكل فتوة او طور
لغوي معجم خاص ونحو خاص . فالمقدمة الخلدونية مثلاً تحتوي
على عدد كبير من مصطلح العلوم الواردة فيها وعلى اسلوب
مركز اشبه بأسلوب الفقهاء . وليس بالامكان فهمها بدقة

- او على الاصح ترجمتها - الا بعد الاحاطة بمصطلح العلوم والامام بالثقافة التي كانت شائعة في العصر الخلدوني . وهكذا حال كتاب الاغاني والمقامات والقرآن الكريم وما اليها . وبعد التمرس بالترجمة يكتسب القارئ دقة لم يألفها من قبل ، ويقرب من فهم النص على وجهه الصحيح . اقول يقرب ولا اقول يفهم ، لان الفهم يحتاج الى مرتبة اعلى هي تذوق الثقافة الخاصة بعصر ذلك النص . يُضاف الى ذلك ان الترجمة تبرز خصائص اللغة من وضوح او دقة او اطناب او غنى لفظي او خصب خيالي ونحو ذلك . وكان الاستاذ يرى القواعد وسيلة لفهم النص . فاذا مر بموطن لا يتضح فيه المعنى الا بكشف نكتة نحوية او صرفية ، او رأى اسلوباً منحرفاً عن المألوف وقف سائلاً وموضحاً . وليس هناك وسيلة خير منها لفهم القواعد وتمييز المفيد من غير المفيد . أما البلاغة - كما نفهمها نحن اليوم - فلم يضع وقتاً فيها . وربما كان يعتمد على ذوق القارئ الذي لا بُدَّ من أن يدرك الخصائص البيانية بالموازنة بين مختلف الأساليب . ولكنه عني بالعروض بالقدر الضروري متبعاً الطريقة الرمزية في وزن الأبيات . وهي طريقة تجعل تلك البحور الطويلة العريضة التي يغرق فيها الدارس غايةً في اليسر .

وواضح أن نهج الاستاذ أشبه بأساليب القدماء الذين
 اعتبروا علوم اللغة متشابكة ، وكان همهم فهم النصوص .
 ولكن المتأخرين انحرفوا عنه وأطالوا وعسروا دون فائدة .
 وهذا ما حمله على إقصاء كتب القواعد من منهجه . أما
 القواعد نفسها فلم يُقَصِّصها . وكثيراً ما كان يردّ الطلاب
 الى باب معين للتوسع او النقد .
 وسلك في الادب مسلكاً طريفاً . عرض الموضوعات
 متسلسلةً مبيناً فضل كلّ متأخر على من سبقه او نقصانه
 عنه ، مفضلاً حيناً ومجملاً حيناً آخر ، راداً الطلاب الى
 المراجع للتوسع . ونظر الى الأدب نظرة أوسع بما اعتاد
 غيره أن يفعل ، فأدخل فيه حديثاً وتاريخاً وفقهاً . وصنع
 مثل ذلك في التاريخ الاسلامي . وكان قصده من هذين
 الموضوعين وضع الخطوط الرئيسية فحسب ، تاركاً التوسع
 والتعمق للطلاب نفسه . وبذلك جعل العلم هداية وارشاداً
 لا تلقيناً .

*

وبعد فهذه صور ظلّت عالقة في الذهن . فان لم تُقَدِّ
 تبصراً بالاساليب فلتكن تاريخاً لمجاهدين في ميدان ما يزال
 بعيداً عن الانظار .

صلف ...

قمت هذا الاسبوع بتجربة دونها تجارب باستور وأديسون
وماركوني ومن لفّ لفّهم ! وكيف كان ذلك ؟ اسمع
يا عزيزي واضحك او اعبس ..
شاهدت شيئاً يسمونه الصلف في نفر من خلق الله ،
فنفرت منه أشدّ نفور ، وكرهت هذا الخلق ، وتولدت
فيّ حاسة اخذت تقوى وتشتدّ حتى كدت اكره نفسي
وألزم بيتي ، لا أرى أحداً ولا أحب ان أسمع شيئاً من
أحد . تلك حاسة إدراك الصّلف مهما قلّ ودقّ .
وفي الوقت نفسه ظهر فيّ ميل شديد الى التواضع الى
أبعد حد يمكن ان تتصوره . ولولا عيون الناس لحملت
ألبستي ووضعت على ظهري بردعة الحمّال او أطمار الدرويش
الحق وضربت في الريف على غير هدى ، حتى ينساني الناس
وأنسى أنا نفسي ..

وفي هذه الحالة النفسية ، والكآبة تتغلغل في كل عرق
من عروقي ، مرّاً ببالي خاطر كالمح برق ، فأغفلت شأنه
ولم آبه له ، وإذا به يعود ثانية ويلبث مدة أطول ، فلم
يسعني إلا أن أعيره التفاتاً ، ولكنني عبست وطرده من
بالي ، ولم يلبث ان عاد ذاك الخاطر ثالثة ، فلم أعبس
هذه المرة ، بل ضحكت . واخذ الخاطر ينبسط وينمو
بسرعة ، ويتشكل بصور مختلفة ؛ واخيراً اضحى فكرة
ناضجة صالحة للتنفيذ .

وكنّت في تلك الفترة أجلس في غرفة يشاركني فيها
اثنان ، كلّ منهما منصرف الى عمله ، لا يدري ما يدور
في هذا الرأس الصغير المجاور له .
وفي لحظة دبّ في جسمي شعور عجيب أشبه بالحمى
التي تلتاب الجسم من أعلى الرأس الى أخمص القدمين ،
وشعرت فعلاً بارتفاع خفيف في حرارة جسمي ، ونهضت
قليلاً عن مقعدي وسويت جلستي ، وانتصب ظهري ،
وتوترت عروق عنقي ، وارتفع رأسي ، وشعرت بثقل
يتجمع في أعلى الدماغ ويؤثر في حركته ، وأدرت رأسي
نحو من يجلس الى يميني فاذا بي أراه صغيراً قليل الشأن ،
وما هو كذلك ؛ فاستعدت بالله . وأدركته يساراً فاذا بي
أرى من يجلس الى يساري صغيراً وضعيلاً كصاحبه ، وما هو

كذلك ؛ فأعدت رأسي ونظرت أمامي ورحت أفكر فيما
أصابني ، لقد بدا لي صاحبائي على هذه الحال لان ارتفاع رأسي
عن مستواه العادي غيّر الزاوية التي أنظر منها ، فبدا المنظور
مخالفاً لما اعتدت أن أراه ؛ والمرتببات تختلف أشكالها
 باختلاف الناحية التي يصوّب منها النظر إليها . ولكنني قلت :
ولم اختلف طبيعة المروي ؟ لم هذا الصغار الذي أجده في
هذين الرجلين وهما بريئان منه ؟

وأدركت ، يا عزيزي ، فوراً أنني مصاب بالصلف ،
وأن الفكرة التي جالت بخاطري قد تحققت بالتأمر بين عقلي
الباطن وشعوري الباطن . ورفعت يدي الى موضع الشاربين
أريد أن افتلها وارفع طرفيها الى أعلى ليشبها شاربى عنقرة
ابن شدّاد ، كما تصوره الصور الشعبية ، ولكن يدي وقعت
على مثل الشوك القصير ، وندمت لأنني لم أطلق شاربى ،
ولم أشدها ولم أعالجها بالزيت . وانطلقت يدي الى أعلى ،
الى حاجبي فنفشتها وحاولت أن أجعل لها طرفين دقيقين
يشابهان طرفي الشاربين ليسداً مسدهما ، كما يفعل بعض
الناس الذين يخلقون الشاربين ويستعيضون عنها بشاربين
علويين ، ولكنني لم أفلح ، لان شعر حاجبي لم يبلغ الطول
الذي يعين على تحقيق ما أريد ؛ ومع ذلك فقد صنعت بهما
كلّ ما يمكن أن يصنع ، فنفرت الشعرات كلّها ،

وصارت أشبه بوموش العينين .
 وفيما أنا أعالج الشاربين العلويين دخل الغرفة زائر
 وجباني ، فحاولت أن أنهض لأردّ تحيته ، ولكنني شعرت
 كأن حبلاً أوثقت ربطي بالمقعد ، فلم استطع حراكاً ،
 فحينئذ ظهري قليلاً الى الامام ، وأشرت الى الزائر أن
 يجلس على الكرسي الذي بجاني .
 وبدأ الرجل حديثه ، والتفت اليه فاذا عيناى تويانه
 كما رأنا مجاورين ، واذا به يبدو صغيراً قليل الشأن .
 وقطبت حاجبي حتى اتصل طرفاهما الغليظان وأصبحا
 كالشاربين ، ولم استطع أن أجاري الزائر في الحديث على
 النجوى الذي ألفته في سابق عهدي . وألقيت نفسي أتحدث
 أكثر مما أصغي ، ونجرج كلامي في جمل قصيرة ونبرات
 قاطعة كجدّ السكين . وادرك الزائر انه امام شخص قد
 غلبه الصلف وقلبك عليه حركاته وسكناته وحديثه ، فراح
 يكرر كلمات : نعم ، صحيح ، عظيم ، مذهش ، أحسنت !
 وأنا لا ادري علامَ يعتبّ ؟ ولكنني لا اشك في ان حديثي
 لم يكن مما يستحق الاستحسان والدهشة والتعظيم . وتعجّل
 الزائر الانصراف وغادر الغرفة وهو ينحني ويتسم ويحييني
 بغاية الادب والتذلل الى ان غاب عن ناظري .
 وحين وقت الانصراف . فنهضت متثاقلاً ، وحملت

اوراقي وسرت بخطي وثيدة ورأسي ما يزال مثقلاً بالجمال
الذي تركز فوقه ، ولم أحيّ احداً ، وحيّاني كل من
رآني ، وسلكت سبيلي الى البيت ، ورأيت في طريقي
كل من مر بي وضعياً قليل الخطر . ولم تتجاوز نخبي
الإشارة باصبعي حيناً ، وفتح في بكلمات قليلة حيناً آخر .
وشعرت اني محاط بجلال لم اعده في سابق ايامي . وراقني
هذا الوضع . وحين بلغت بيتي دخلت الى مكتبتي واستقيت
على المقعد الطويل الوثير وغصت في لجة الفكر . أهذا هو
الصلف حقاً ؟ أهذا ما كرهت من الناس المصابين به ،
استغفر الله ، بل المتحلين به ؟ ما اسخف تفكيري ! أمثل
تلك الصفة العالية زهدت في ذلك النفر من كرام الخلق ،
وفكرت في بردة الجمال واطمار الدرويش ؟ لقد كنت
مخبولاً ، والآن عاد اليّ اتزاني ورشدي .

ولبثت ، ايها العزيز ، على هذا الحال اسبوعاً ، وتجلت
لي الدنيا بصورة غانية فاتنة ، كل ما فيها ساحر وجميل .
ولم يحدث ما يعكر مزاجي ، وصرت اقضي اعمالي بسرعة ،
لا اجد مستعصياً ، ولا اصادف عقبة ، وكأن الحياة سهلة
ممهدة السبل ، ناعمة الموطىء . وغدوت من اولئك النفر
الكريم المبجل المحاط بجميع مظاهر التكريم والتعظيم ، المقضي
الحاجات بأيسر سبيل . وندمت على ايامي السابقة كيف

أزجيتها بحمقي وغفلتي على ذلك الوجه البشع ، ووددت لو
استوددت تلك الايام وعشتها ثانية وهي تطفح بالبشر
والغبطة والرغد .

وذات يوم دخل عليّ زائر كبير المقام جليل القدر ،
فأومأت اليه ان يجلس بجانبني ، كما دأبت في ايام ذلك
الاسبوع ، ولم انهض له ، ولم احفل به ، ولم أعره
التفاتاً . وجلس الزائر متجههم الوجه ، وقال لي بصوت
مرتفع : أية حماقة ؟ . قلت : حماقة ! ونزلت الكلمة
على رأسي كالصخر ، وأزالت الثقل من مكانه في
أعلى رأسي ، وخرج الصلف من جسمي بحركة
تشبه الرعدة التي تصيب المحموم ، وتبعه نضح عرق خفيف .
والتفتُ الى الزائر فاذا به يبدو لي بجلاله وهيبته المعهودين ،
فوقفت وانخبت قليلاً وقلت : أهلاً وسهلاً .. فقال :
لا أهلاً ولا سهلاً ! أقف ببابك أنتظر الاذن بالدخول كأنني
ساع في باب وزير ، ثم تستقبلني هذا الاستقبال البارد ،
وعهدي بك تعرف مقامي وتحفل بي ؟ فهل بلغك أنني فقدت
كرامتي وجاهي حتى أنزل منزلة الوضيعين ؟ أم ان حالك
انت قد تغيرت ، وانسلخت عن شمائلك الحلوة ، وتواضعك
الجميل ، وايناسك وبشرتك التي قربتك الى القلوب ؟ ولم أحر
جواباً . ولكنّ يدي اليمنى ارتفعت الى حاجبي فسوّت

شعرهما وضغطت طرفيهما الدقيقين مراراً ، وانفرجت الفسحة
بين طرفيهما الغليظين ، وبان جبيني منبسطاً كجلد الصلعة ،
واخذ الرجل يتدفق في كلام على غرار ما ذكرت ، وانا
أصغي إصغاء الطالب الى استاذة الجليل . وهم الرجل
بالانصراف ، فقامت اليه وتعلقت بأذنيه ، وقلت له : عفواً ،
إني لحزين لما حدث ، فاجلس وحدثني في الموضوع الذي
قصدتني من أجله ، وستجد مني ما ألفت من الانتباه
والعناية . فغلب على الرجل طيب قلبه ، وتبسط في
الحديث ، وأوليته كامل عنايتي ، فسرتي عنه ، وقضيت
حاجته ، وانصرف وانا أشيعه الى الباب وهو يعتذر ويقول :
أستغفر الله ! أستغفر الله ! لقد غمرتني بكرمك ، بعد أن
أسأت اليك ... سامحي .

وعدت الى مقعدي وارتقت عليه . ونظرت الى من على
يميني فاذا هو في مقامه الكريم ، ونظرت الى من على
يساري فاذا هو كذلك على ما عهدت من الرفعة . وضربت
بيدي على جبيني ، ونظر الرجلان وقالوا : مالك ؟ قلت :
لعن الله الشيطان . لقد أنساني شيئاً حرصت عليه ، فضحكوا
وقالوا : أجله الى غد ...

وأجلت الصلف لا الى غد ، بل الى نهاية العمر . لقد
أودى ذلك الزائر الكريم بمولود رافقني اسبوعاً ، وحرمني

عواطف العرب



وقع * لي اليوم حادث أثار عواطفني وهزّ مشاعري .
فبينما كنت أفق في باب المعهد الذي اعمل فيه أقبلت
سيدة ملتفة بلاءة سوداء وسألني عن ابن لها . فقلت لها :
إنه في الدرس . فسألني هل أعرفه ؟ فقلت : إني أعرفه
واعلمه . فقالت لي بأدب جم : ما اسمك ؟ فقلت : فلان .
فهجمت عليّ وأكبّت على يدي تريد تقبيلها . فسحبت
يدي وابتعدت قليلاً ، لا كبيراً ولكن لاني اكره ان
يقبّل يدي أي مخلوق ، فكيف بسيدة !

وانطلقت السيدة تتحدث بصوت رقيق فقالت : ياسيدي ،
أعزني سمعك قليلاً ، إني أمّ ، والامّ معذورة إن أحبّت
ولدها وفلذة كبدها الى حد العبادة . وهذا الذي أسألك
عنه له قصة عجيبة . إنه ولد ثلاث نساء لا امرأة واحدة .
لقد تزوج والده امرأة فلم تلد له ولداً . فتزوج الثانية فلم

* من رسالة الى صديق في لندن .

تلد . ثم تزوجني فرزقه الله مني ابني فلاناً الذي سألتك عنه . ثم توفي والده الشيخ بعد مولده ببضع سنوات . وكنا - نحن زوجاته - نحبه ونحبه لرفقه بنا وحده علينا . ونحن اليوم ، نحن الثلاث نوجه بصرنا الى الولد مرة ، ونرفعه الى الله مرات ليحفظه لنا . فهو ليس ابن امرأة واحدة ، إنه ابن ثلاث نساء .

وقد كتب الينا يذكرك بخير . وما عرفتك حتى هجمت أودّ تقبيل يدك اعترافاً بجميل صنعك ، واستدراكاً لعطفك عليه في الايام المقبلة . فلا تبتئس يا سيدي . اني امرأة كسيرة القلب . وهذا فلذة كبدي وابن زوجي الشيخ ، ووحيد تربتي . فلئن نشدتك الله ان تجعله امانة في عنقك وان تحوطه بعنايتك فاني افعل ذلك مدفوعة بعاطفة جامحة . وما اتمت المرأة حديثها حتى سرت عاطفتها المتأججة الي . فقلت لها : يا سيدي هوّني عليك . ان ابنك بحراسة الله ، وحراسة اساتذة يعتبرون طلابهم ابناء لهم . وابنك مهذب وذكي وما احسبه إلا بالغاً ما تريد له من نجاح وتوفيق بدعائك له اولاً ، وبجده واجتهاده ثانياً .

فأخذت المرأة تدعو لي بصوت متهدج . وانصرفت الى عملي ، وقصتها تشغل بالي . ومرّ الطالب بعد ذلك من امامي فلم احده بما وقع ، ولكنني لا اكتبك اني رأيته بعين

غير العين التي كنت اراه بها . رأيت بطل قصة مشجية .
ورأيت حقوقه عليّ اضعاف ما كنت اراها من قبل .
وتعدى تفكيري في هذا الشاب الى سائر رفقاءه . فهذا
شاب قد شاء الله ان يكشف لي عن سرّه . او ليس من
الجائز ان يكون لكثيرين من زملائه امرار كسرّه ،
وقصص كقصصه ؟

وربما تعجب لهذا الفرض . لأنّ الناس في بلادكم لا
يحرصون هذا الحرص على ان يكون لهم اولاد . ولا
يتوسلون بما توّسل به الشيخ . فالفانون لا يبيع تعدد
الزوجات . والمجتمع لا ينظر الى الولد هذه النظرة ، ولا
يعنى بشأنه كلّ هذه العناية .

ولكن الامر في بلادنا على خلاف ذلك . فالذي يموت
عقياً يعتبرونه كأنه ما عاش . ويتفاخر الناس بالبنين
ويتكاثرون بهم ويمتزون . هذه هي النظرية السائدة
في مجتمعنا - على الأقل - ، والشرع يُقرّ هذا الاعتبار ،
ويجعل للذكر مثل حظّ الانثيين .

ولا شك في ان العلاقة الأبوية والبنوية تفرض واجبات
لا تعرفونها انتم في بلادكم . فاحترام الوالد وطاعته منصوص
عليهما في القرآن . وهو ينهى الولد عن ان يقول لأبويه
« أف » او ان ينهرهما . وحبّ الوالدين لابنهما - حبّ

مزوج بالاعتزاز والتفاخر . وإساءة الولد - في المجتمع -
تلحق أبويه وأسرته جميعها .

وانتم تفرضون على الأبوين واجبات تنتهي عند بلوغ الولد سن
لرشد . ثم تتركونه يتصرف في حياته كيف شاء . فان
أحسنَ فلنفسه ، وإن أساء فعليها . وتعتبرون البنت في
ذلك كالولد ، فلها حرية كحريته ، ومسؤولية كمسؤوليته .
ولا أفاضل بين النظامين ، لأن ما من عاقل الا يرى
لكل من النظامين محاسن وعيوباً . وانت تعلم رأيي في
هذه المسألة . وقد أفضنا فيها غير مرة . وتحدثت بذلك
الى كثيرين غيرك . وكان بنو قومك يعجبون اشد العجب
حين أشرح لهم تفاصيل نظامنا الاجتماعي ، بقدر ما كنت
أعجب حين أسمع تفاصيل نظامكم . وكنا حين ننتهي من
الحديث الى هذا السؤال : اي النظامين أفضل ؟ يقولون :
لا شك في ان لكل نظام عيوبه ومحاسنه ، ولكنكم
مغالون بقدر ما نحن مغالون . واقول انا ايضاً قولهم .
وكنا - نحن الشرقيين - ان سمعنا قصة غير مألوفة
عن العلاقة الابوية عندكم نذكرها ونحن لا نكاد نصدقها ،
وربما بالغ بعضنا في الرواية على الطريقة الشرقية . وهناك
قصتان لا أنساها . وما أظن اني ذكرتهما لك .
أولاهما : ان مواطناً منكم استأذن مرة تاجراً شرقياً

- يتاجر بالسجاجيد في لندن - بأن يسمح له بالتغيب بعد ظهر يوم من ايام العمل . فقال له التاجر الشرقي : حباً وكرامة ، ولكني اودّ أن أسألك عن سرّ طلبك هذا . فقد مضى عليك عشرون عاماً دون ان اسمع منك مثل هذا الطلب ؟ فأجاب المواطن : اريد أن اقابل امي . فقال التاجر الشرقي : ولم لا تقابلها يوم الاحد ؟ فأجاب : لأنني ما رأيته منذ عشرين عاماً . واليوم - فقط - علمت بوجودها في لندن ، واتفقنا على ان نلتقي بعد الظهر . فأذن له التاجر بالتغيب وهو لا يكاد يُصدّق ما سمع .

والثانية : ان رجلاً ، من مواطنيك قال لأحد جيرانه الشرقيين في الشقة التي يسكنها : لقد بعثت لأمي رسالة أستأذنها بضرب موعد للمقابلة . فقال له جاره : وهل تقابل امك بميعاد ؟ فقال : وهل يصحّ ان اقابلها بغير ميعاد ؟ وهناك قصص كثيرة في هذا الموضوع لا تجد لها اسبأها في مجتمعنا . وفي رأيي ان كلا المجتمعين مغال . ولا بُدّ من ان يأتي وقت تخفّ فيه هذه المغالاة ، ويدنو المجتمعان احدهما من الآخر .

ولست - كما قلت - اقصد التفاضل . ولكني اخرج من قصة الطالب ونظائرها بنتائج مهمة لا تتسع لها هذه الرسالة . آه يا عزيزي . لا ادري كيف يتشقق الحديث . فاني

امسك بالقلم لأحدثك عن نفسك ولأثبتك شوقي ، فأرى قلبي
يشط ولا يترك لي مجالاً للتعبير عن عواطفني . وعسى ان
يكون في ذلك بعض الخير . وإلى اللقاء .

٢

لأتم حديثي السابق . فقد بلغت نقطة أودّ ان أفيها
حقّها من البحث .
لا بُدّ من ان تترك التربية أثراً كبيراً في نفسية الطفل .
وتربيتنا التي حدثتك عنها في رسالتي السابقة تورث الولد
صفتين : الأولى اضطراب العاطفة . والثانية الاعتزاز بالنفس .
وهاتان صفتان بارزتان في النشء العربيّ ، بل في الأمة
العربية وخلقها وأدبها . فالطفل الذي يُحاط بالحبّ من كل
جانب ، ويلبس عواطف الأبوين ومن يليهما بالقربى ، ولا
مسيّات الاناث ، ويرى أنه - في كثير من الاحوال -
موضع الرجاء ومعقد الأمل تنفعل نفسه بهذه المظاهر ، وتنمو
فيه عاطفة قويّة هائلة .

أليس من البديهي ان يُحبّ المرء من يحبه ؟ وان يفرط
في حبه بقدر ما يفرط المحبون في حبه إياه ؟ وإن أحبّه
عشرون شخصاً فلا بُدّ من ان يحب هو العشرين شخصاً .
وإن أحبّه العشرون بجرارة فلا بد من ان يحبهم هو ايضاً
بجرارة . والنتيجة ان العربي مشبوب العاطفة متأججها .

واللغة العربية والأدب العربي مملوءان بالشواهد على ذلك .
فالشعر العربي عاطفي ، والنثر العربي عاطفي . وإنه
لمن أشقّ الأمور ان يحاول المرء ضبط هذه العواطف أو
كبحها . وأذكر ان الطلاب حين يكلفون كتابة رسائل
الى والديهم يستهلون رسائلهم بعبارات الاحترام التي تبلغ
حدّ التقديس . ومن ثمّ إن كلفوا كتابة رسالة الى صديق
- او على الأصحّ الى رفيق ، حسب اصطلاحكم - يكتلون
له عبارات الحب بالمكيال نفسه . وقد يبدو أنهم مراؤون .
والحقيقة انهم صادقون كل الصدق . فعواطفهم ينابيع
متفجرة من أرقّ المشاعر واصفاها .
وقد عرف العربي بالوفاء ورعاية الذمة . وما هاتان
الصفتان ؟ إنّهما إلا مظهران لاستقرار جذور الحب في
أعماق النفس .

ولا اكتمك اني حين اكتب الى اساتذتي من الاوربيين ،
او حين اكتب اليك انت ، تهبّ في نفسي عواطف
كالعواصف . وأعالج نفسي وأحتال لها حتى لا ينمّ اسلوبي
عما يكنه صدري ، لاني أخشى ان أنهم بالرياء .

وعبارة Flowery Language سمعتها ألف مرة من أساتذتي
الأوربيين في معرض الحديث عن اللغة العربية . وما كنت
أتحسّس في ذلك الوقت هذا الذي أشرحه لك لأقول لهم :

إن هذه اللغة « الزهرية » لغة قلوب عامرة بالحب الصادق .
ويؤلمني ان اقول لك : ان جهل هذه الصفة في الخلق العربي
يُحدث مشاكل لا تعدّ لمن يساكننا او يعاملنا من الاوربيين .
وقد قيل : ان ثورة في ناحية من نواحي البلدان العربية
سببت لان رجلاً اجنبياً هاج عواطف السكان . وقد يبدو
ذلك مبالغاً فيه . ولكنه لا يعدو الحق .

وابن الامير وابن الأجير سواء في اضطرام العاطفة . فكلاهما .
يجب بافراط ويبغض بافراط ويشور بأفراط . والسبب ان ابن
الأجير يُحاط في بيئته بالعواطف نفسها التي يُحاط بها ابن
الامير . وربما كان لوالد الامير اولاد كثيرون ، ولم يكن
لوالد الأجير ولد سواه . وعواطف البشر لا تخضع للجاء
والمال . وليس ما يمانع في الطبيعة البشرية ان تحب امرأة
فقيرة ابنها كحب امرأة غنية . وقد تكون الأولى ظروف
تضاعف عواطفها .

والاعتزاز بالنفس صفة ثانية . وهي نتيجة تيقظ الحس
بالكرامة . والكرامة تتولد عن التكريم والحب والايثار .
فالعواطف التي تُمنح تتجمع في النفس وتحفظ حقاً مكتسباً .
وأقلّ محاولة لسلب هذه العواطف الممنوحة افتات على
الحقوق . وهذا سرّ من اسرار النفس العربية التي يفطن
اليها أكثر من يعاملنا من الأوربيين . فالعربي يحتمل

الجوع والظما والعري ، ولكنه لا يحتمل ان تمسّ كرامته .
وجميع ضروب الحرمان مألوفة عندنا الاّ حرمان الكرامة .
ومن اجل ذلك تضيق صدورنا بالنقد ، ولا سيما ان شممنا
فيه سوء النية ، لأننا نحمله على أنه ضرب من الافتات
على الكرامة . ومن اجل ذلك تعمل الوشاية في نفوسنا
عمل السمّ . ويحدث الفساد والتضريب في صفوفنا من
الانشقاق ما لا يُحدثه سلاح آخر .

ونبالغ بالاعتزاز بالنفس الى حدّ اننا نأبى تحري
الوشايات والدسائس ، ويبلغ غضبنا أقصاه عند سماع الطلقة
الاولى من بندقية الواشي النذل ، ولا نبقي مجالاً للتثبت
من صحة ما قيل ، ولا تطيق أعصابنا تحمل الاهانة ، فتتهار
الصلات في لحظات انهيار الرمل .

ما هذا ، ايها الصديق ، أهذه رسالة مشوق أم بحث
يعرض على استاذ؟ اكتب اليّ ايها الصديق واسمعي صدى
أحاديثي هذه في نفسك . فأني لا افتأ افكر فيك وفي
مطارح الهوى والفتنة . أتذكر رحلتنا على الاقدام في
مروج « كينت » ؟ لكانها كانت أمس ، نعم ، أمس ،
والى اللقاء .

أديب العربية

محمد اسعاف النشاشيبي

لا نعرف السنة التي ولد فيها أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي . والمذكور في اوراق الحكومة سنة ١٨٩٠ م ، وهي دون ما يرويه معاصروه . وذكر احدهم سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .

والده عثمان بن سليمان النشاشيبي من أبرز رجالات عصره ذكاءً وعلماً وبسطة مال . وقد تقلّب في مناصب الدولة حتى أصبح عضواً في مجلس المبعوثين في الاستانة . ووالدته ابنة الحاج مصطفى ابو غوش الملقب بملك البر ، وابنة عمه ابيه عثمان . ورث النشاشيبي عن ابيه مزاجه العصبي الناري ، وميله إلى الأدب ، وجلّ ثروته . ونشأ في عصر كان فيه المتعلمون قلةً ، غاية مطلبهم الفقه واللغة والخط والحساب . وعرفت بيت المقدس في ذلك العهد حلقة من الشيوخ ينتظم فيها السادة : محمد جار الله ، وعارف الحسيني ، وموسى عقل ،

واسعد الامام ، وراغب الخالدي ، وكامل الحسيني المفتي ،
وعثمان النشاشيبي ، ورشيد النشاشيبي ، وعبد السلام الحسيني
وغيرهم . وكان هؤلاء الشيوخ يتقارضون الشعر ويتذاكرون
الأدب ، ومسائل الفقه في دواوينهم . ولعلّ النشاشيبي ارتاد
الحلقة مراراً وسمع نواذر اللغة والأدب ورأى الكتب
النفيسة في خزانة والده وخزائن الشيوخ ، وإن لم يع من
هذه وتلك إلا « الانطباعات » .

وبعد أن أتمّ دروسه في المكاتب المعروف حالها في ذلك
العهد اقترح الشيخ راغب الخالدي على أبيه أن يرسله إلى
المدرسة البطريركية في بيروت ، ففعل . ولبت زهاء أربع
سنوات يتلقى العلم على الشيخ عبد الله البستاني والشيخ محي الدين
الحياط والشيخ مصطفى الغلاييني وغيرهم من أساتذة المعهد ،
فتذوّق الأدب على نحو لم يكن مألوفاً في بلده ، وشغفته
العربية بأسرارها الدقيقة وألفاظها الأنيقة ، وأساليبها المحكمة .
وكان البستاني أوره حبه الأدب القديم وبغضه اساليب
المحدثين ، وكلفه بالبحث عن أصول المفردات . وألمّ بالفرنسية
المماماً حسناً أعانه على قراءة بعض الكتب العلمية والصحف
كالطان والعالمين . ورأى العربية على نور لغة اعجمية مهما
دقّت ورقّت لا تبلغ شأو لغته ، وهي التي « أتقنها الاتقان ،
وأبدعها الابداع . قد جمعت الحسن كله في نظام . وبذّت

جميع لغات الانام . فالتجود مخلصها حيثما سارت ،
 والتنوق معانقها انى دارت . واذا تنافرت اللغات يوماً
 وتساجلت جاءت فتاة الجزيرة سيدة عفيفة وجئن إماء ..
 وهي لغة (الكتاب) ولغة الأعراب ، ولغة الايجاز اذا
 ابتغيت الايجاز ، ولغة الاطناب إن ترد الاطناب . فهيات
 هيات أن تمشيها في الفصاحة والبلاغة لغة أو يجاريها في
 البيان لسان » . (من كلمة له عنوانها سبيكة العجسد في لغة محمد)
 وعاد إلى بلده شاباً يافعاً لم يتجاوز العقد الثاني ،
 مزهواً بعلمه معجباً بأدبه متكبراً على أقرانه . عاد وبيده
 قصيدة مطبوعة بماء الذهب في وداع مدرسته . وما كان
 القوم يبغون أدباً . ومع ما تحلى به والده من أدب
 وذكاء ، فقد أراد ابنه على أن يكون عوناً له على إدارة
 أملاكه الواسعة وأمواله الطائلة . فارتطم رأس النشاشيبي
 بصخرة صماء ، وعانى آلاماً مبرحة . وزاده شقاء بؤس
 أمته ، واستخذاؤها ، فنظم قصيدة في اربعة وعشرين بيتاً
 استهلها بقوله :

العرب مات شعورهم فاندبه دهرك باكيا
 ولى فولى بعده أنسي وساء مآليا

*

قد كنت اطمع ان ارى وطني بهيجاً زاهيا

فوجدته من كل علم أو علاء خاليا
فرثيته وندبته وسكبت دمعها غالبا

*

فسعادتي يا ابن الكرام وبغيتي ومراميا
ان تصبح العرب الأذلة سادة ومواليا

وجاء الدستور سنة ١٩٠٧ وارتفع الكابوس ، وانطلقت
الالسنه من عقالها ، واستقبله النشاشيبي بقصيدة طويلة استهلها
بقوله :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا

لا تخافي من العدو اغتيالا

وظهرت عدة مجلات ، وصال النشاشيبي بقلمه ينظم حيناً
وينثر حيناً آخر . وصادر المرحوم حنا العيسى - شقيق
الكاتب المرحوم يوسف العيسى صاحب الفباء الدمشقية -
مجلة الاصمعي في بيت المقدس ، فالتقى ثلاثة اصدقاء ،
النشاشيبي والعيسى والاستاذ خليل السكاكيني في ندوة صغيرة .
ولقبوا النشاشيبي بأبي الفضل لولعه بمقامات البديع ، والسكاكيني
بأبي الطيب لكلفه بالمتنبي ، والعيسى بأبي سعيد لاصداره مجلة
الأصمعي . وتولى النشاشيبي رئاسة تحريرها نيابة عن صاحبها
مدة وجيزة . وصادر المرحوم خليل بيدس سنة ١٩٠٨ -
١٩٠٩ مجلة النفائس ، وعمرت زهاء تسع سنوات ، ولم يخل

مجلد منها من شعر النشاشيبي او نثره . وصدرت سنة ١٩١٢
مجلة المنهل في بيت المقدس فكان من كتابها . وكتب في
عدد من الصحف العربية في مصر وسوريا .

واعظم اثر للنشاشيبي في هذه المرحلة كتاب صغير الحجم
نشره سنة ١٩١٢ في مجلة النفائس بعنوان « امثال أبي
تمام » جمع فيه أمثاله ، كما جمع من قبله صاحب بن عباد
أمثال المتنبي ، وقرأ من اجله اربعمائة كتاب من كتب
الادب وغيره من الفنون . وعده طائفة من الاساتذة
المحققين « خير كتاب بدا في الأدب العربي في هذا العصر » .
وأثر هذا الكتاب في توجيه النشاشيبي نحو الادب القديم والعناية
بصادره النادرة في ذلك الحين ، والبحث والتنقيب في
أمهات المعاجم كما اثر في اسلوبه . فقد كان يرجو أن
يصنع في النثر ما صنع أبو تمام في الشعر . وهذا سر
تفرّده بأسلوبه العجيب .

وأعجب ما رأيت من شعره في هذا الدور قصيدة في سبعة
وعشرين بيتاً عنوانها « فلسطين والاستعمار الاجنبي » جاء فيها :
يا فتاة الحبيّ جردى بالدماء بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولّيت فلسطين ولم يبق يا أخت العلي غير ذماء
انها أوطانكم فاستيقظوا لا تتبعوها لقوم دخلاء
كيف ترجون حياة بعدها ونعيا وهناء وصفاء

وفي غمرة الحرب عكف الناشيبي على القراءة بجلد عجيب ،
وكان لا يبرح بيته أياماً وليالي مكرهاً . ومن آثاره
قصيدة قسّج فيها سيرة الترك الجائرة مطلعها :

لئن ساس أبناء المغول قبيلة نأى الخير عنها والبلاء أقاما
وقبيل نهاية الحرب انضم الى اساتذة الكلية الصلاحية
التي انشأها جمال باشا في بيت المقدس بادارة المرحوم رستم
بك حيدر ، وألقى اولى محاضراته بعنوان « كلمة في سير
العلم وسيورتنا معه » حث فيها على طلب العلم في الغرب . وفي
هذه المحاضرة نضج اسلوب الناشيبي ونصع . ومن قرأها ووازنها
بسائر آثاره بعد رأيه وحدة الاسلوب ووحدة الرسالة والفكر .
وبعد الحرب الكبرى - الاولى - انصرف الناشيبي الى

التعليم ونشر رسالته في حب العرب والعربية بصوت عربي
فصيح وجراة كانت على خصوم العربية كحدّ السكين .
وانتقل من التعليم الى التفتيش الى ان أضحي مفتشاً للغة
العربية حتى سنة ١٩٢٩ . ومن آثاره في هذه المرحلة
« مجموعة الناشيبي » و « البستان » . وفيهما يتجلى ذوقه
الرفيع وتوجيهه القومي . و « قلب عربي وعقل اوروبي »
وهي محاضرة القاها في جامعة بيروت الاميركية سنة ١٩٢٤
ينبئ اسمها عن موضوعها ، و « كلمة اللغة العربية » وهي
دفاع عن العربية لا يدانيه دفاع في الادب العربي الحديث

بما أذاع صيته في البلاد العربية عامة والقطر المصري خاصة
 اذ جهر به في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة سنة ١٩٢٤
 فتهافت الادباء على لقائه وتعظيمه . ورسالة عنوانها « العربية
 وشاعرها الاكبر احمد شوقي » وهي خطبة في المهرجانات
 الشوقي ، و « العربية والاستاذ الريحاني » .
 وبعد ترك ادارة المعارف انقطع الناشبي الى القراءة
 والكتابة والرحلات في مصر والشام . وصدرت عنه رسائل
 قصيرة في اصلها خطب اقتضتها المناسبات ، « كمقام ابراهيم »
 و « بيروت والغلاييني » ، ومقالات في موضوعات متنوعة
 يذيلها حيناً باسمه ، وأحياناً بأسماء مستعارة . ومن ذلك
 سلسلة في الرد على المبشرين ، ونقل الاديب ، خص بها
 مجلة الرسالة الغراء . على ان اعظم اثر تركه في هذه المرحلة
 هو كتاب « الاسلام الصحيح » . وهو - في رأيه -
 اعظم اثر في جهاده الطويل . وكان يقول لي مداعباً :
 سيذهب كل اثر في هذا الوجود إلا الاسلام الصحيح . وقد
 قرأ في سبيله نحو تسعمائة كتاب في مباحث متشعبة عويصة .
 وكل من عرف الناشبي كان يعجب لكتابه هذا . ولكنه في
 الواقع كتاب في صلب موضوعه ، إذ هو قائم على غلبة
 النصوص ونقدها وتحقيقتها . وقد رأينا كيف بدأ تأليفه بقراءة
 اربعمئة كتاب لشرح امثال ابي تمام . اما موضوع الكتاب

فتشيرة منبعثة من اعماق روجه، يسندها علم واسع وتفكير اصيل .
 وحين توفي شوقي بكاه الناشيبي بكلمة بلغ أسلوبه فيها
 الذروة ، وجاء معه النثر الموزون والشعر المنشور بلا تكلف .
 وكانت آلامه النفسية في هذه الفترة تملئ عليه كلاماً أشبه
 بالنواح منه بالكلام المألوف ، كما ترى في كلمته « بيروت
 والغلاييني » و « البطل الخالد صلاح الدين » والقسم الاخير
 من « الشاعر الاكبر احمد شوقي » . وخير ما يعبر عن هذه
 الحالة بيئته الذي ارتجله في جلسة مع امير الشعراء :
 لا تلمني بانحراف كان غيري يتكلم
 وظل الناشيبي في هذه الفترة يقرأ ويكتب ليلاً ونهاراً .
 يخفي حيناً ويظهر حيناً آخر ، حتى كان اصداؤه لا
 يعرفون أعائده هو من سفر أم معتكف في البيت .
 وترك آثاراً مخطوطة حمل منها ثلاثة الى القاهرة في
 رحلته الاخيرة لطبعها . وهي « نقل الاديب » و « أمالي
 للناشيبي » و « التفاؤل عند ابي العلاء » . اما سائر آثاره
 التي لم تُر فهي كتاب « الأمة العربية » و « حماسة
 الناشيبي » و « جنة عدن » . ولم ينظم الشعر بعد الحرب
 الكبرى ، ولم يشأ ان يشيع شعره الذي نظمه قبلها على
 كثرتة . لقد اراد ان يكون اديباً من الطراز الاول ،
 ولم يحله شعره في هذه المرتبة فزهده فيه غير آسف . وحقق

له النثر ما أراد فأجمع الناس على وصفه « بأديب العزبية » .
كان النشاشيبي اديباً فذاً لا نظير له بين أدباء عصره . وفي
رأى انه جاهد ليدع في النثر ابداع صاحبه ابي تمام في
الشعر ، فغاص في كثير من أقواله غوصه ، وتأنتق تأنقه ،
وحلى تحليته ، ورمى بتلك القرون الطوال وراء ظهره
ليظهر في ثوب القرن الثاني الهجري . ومهما قيل في أدبه
فإنه عاد بالاسلام الى القرن الثاني ، بل الى القرن الاول ،
وكان ما أراد دون ان يقصد ما كان . فقد بدأ شاعراً
واديباً منشئاً ، وناقداً وراويّة وانتهى فقيهاً مجتهداً ، قويّ
الحجة ناصع البيان . ولكأنه من فقهاء المسلمين في صدر
الاسلام يتخذون اللغة وسيلة للتفقه في الدين وفهم أسرار
القرآن الكريم . على ان شيئاً في النشاشيبي لم يتغير ولم
يتبدّل ، هو حبه للغته حباً منقطع النظير ، وغيرته على
وطنه العربي الكبير غيرة عديمة المثل ، في بيئة لا يثبت
فيها على حبه هذا الا من راض نفسه على عذاب كعذاب السعير .
وسافر النشاشيبي الى القاهرة شتاء عام ١٩٤٧ ليشرف على
طبع مخطوطاته الثلاثة ، وليتطبّب ، وظلّ مع سمّاره يشنف
آذاهم بأدبه العذب ونوادره المطربة الى ان عاجلته المنية
فجأة في الساعات الاولى من صباح الخميس الواقع في ٢٢ كانون
الثاني . وهكذا انطفأت شعلة كان لها سنى البرق واريح المسك .

معجم القرآن الكريم

ليس في العربية كتاب عكف العرب والمسلمون على درسه وشرحه وتفسيره كالقرآن الكريم . فمنذ اربعة عشر قرنا وهو موضع دراسات متنوعة لا تكاد تنقطع في عام من الأعوام . ومع ذلك فقد أغفل الدارسون والمؤلفون جانباً يُعَدُّ اغفاله - في نظرنا - من اعجب الأمور ؛ ذلك هو وضع معجم يشرح جميع ما يرد في القرآن الكريم من طير وزهر ونبت وشجر ولباس وآلة موسيقية ومدن ورجال وقبائل وأنبياء وقصص ، وما الى ذلك مما يمرّ به القارئ دون ان يقف على كنهه او يستقصي اصله وتاريخه . فاذا قرأ المنّ والسلوى (سورة طه الآية ٧٩) فلا يقنع بقول الشراح إنها الترنجيبين والطير والسُمانيّ ، بل يطالب المزيد من المعرفة حتى يصل الى وصفها بوجه الدقة والحصر . وإن قرأ السِدر والطلع (سورة الواقعة الآية ٢٧ و ٢٨) لم يكتف بقول الشراح إنها شجر النبق والموز . وإن

رأى الاستبوق (سورة الكهف الآية ٣٠ ، والدخان
الآية ٥٢ ، والرحمن الآية ٥٣ ، والدر الآية ٢١) تلمس
مواطن وروده ، ووقف على وصفه ، وتتبع أصل اللفظة
ومنشأها . وقل مثل ذلك فيما يرد من أسماء أعلام وأماكن
وأشارت الى قصص وأخبار وما الى ذلك .

هذا المعجم لا يستغني عنه قارئ القرآن الكريم سواء
أمسلاً كان أم غير مسلم ، طالب هداية وبركة أم طالب
عالم وتحقيق . وهو نفسه يؤدي فائدة مزدوجة : فمن جهة
يُعين على التوضيح والفهم العميق ، ومن جهة أخرى يؤدي
الى دراسة طريفة في تاريخ العرب الثقافي والاجتماعي والأدبي
زمن الرسول عليه السلام وقبيل الاسلام ، كما يؤدي الى
مقابلات بين ثقافات الأمم المعاصرة للأمة العربية .

وليس من شك في أن القرآن الكريم أصح وأصدق
مصدر لجميع العناصر الأولية التي تؤلف كيان الحياة الجاهلية
والاسلامية ، ذلك الكيان الذي نعتمد في إدراكه على
الخيال أو ما يُشبه الخيال .

وأمامي الآن مباحث جزئية تتناول شطراً يسيراً من
هذه الدراسة الواسعة ، منها ما يتناول أسماء الطيور الواردة
في القرآن الكريم ، ومنها ما يتناول أسماء الحيوانات ،
ومنها ما يتناول أسماء الآلات الموسيقية ، ومنها ما يتناول

النباتات والأزهار . وهي مباحث أوليّة يُقصد منها الانتفاع الفردي ، إذ أن مثل هذه المباحث يجب أن يتفرّغ لها عدد كبير من العلماء المتبحرين في علومهم .

بيد أن ما أودّ أن أشير إليه هنا هو أن هذه المباحث تؤكد النظرية العامة التي لم يرتب في صحتها باحث قط ، وهي سلامة القرآن الكريم سلامة كلية من أية ريبة ، وصحته صحة تاريخية علمية . فقد رأيت بعض الباحثين الاوربيين يتخذون من ترتيب سور القرآن الكريم على النحو الذي نجده في المصاحف دليلاً على صحته . وأظن أن إيراد الأدلة العقلية المنتزعة من القرآن الكريم نفسه للتدليل على هذه الصحة مذهب قديم سليم ، أن لم نقل أنه أقوم مذهب وأسلمه .

*

لا ريب في أن دراسة القرآن الكريم على هذا النهج أمر جليل الفوائد . والواقع أنه يبدو غريباً غاية الغرابة أن يغفل المسلمون في تاريخهم الطويل عن الاضطلاع بها . وأغلب الظن أنهم لم يغفلوا ، ولكنهم ضمنوا الشروح التي نقصدها تفاسيرهم الواسعة دون تقيّد بتبويب أو ترتيب خاص على النحو الذي أشرت إليه .

وقد أخبرني أحد علمائنا الثقات أنه قرأ في مصدر لم

تذكره ان احد ملوك المسلمين جمع علماء عصره من فقهاء
 ولغويين ومؤرخين وفلاسفة وأطباء وجغرافيين ومن شاكلهم
 ووكّل اليهم أن يفسروا القرآن تفسيراً شاملاً لجميع العلوم
 والفنون ، كلّ حسب اختصاصه فالفقيه يشرحه من ناحية
 الفقه ، والنحوي من ناحية النحو ، والجغرافي يشرح
 ما ورد من أسماء بلدان ، والنباتي يشرح أسماء النباتات .
 فانقطعوا لهذا العمل ، وجاء تفسيرهم في مجلدات كثيرة
 يتطلّب نسخها عشرات السنين . فهذه الرواية - إن صحّت -
 تُثبت أن القدماء أدركوا ما لهذه الدراسة الوافية العميقة
 من شأن ، وأنهم حقّقوها على وجه لا نعرف - وأسفاه -
 عنه شيئاً حتى نحكم أيطابق ما نقصده أم يخالفه . ولكننا
 نتصوّر ، على كل حال ، أن العصر الحديث يتذرّع بوسائل
 شتى لم تكن مألوفة في العصور الماضية لتبيان المادة
 المعروضة وتحديدّها ، وأقل ما يصحّ أن يُذكر هنا التصوير
 والرسم . فليس اوضح في شرح اسم لباس أو طير أو نبات
 من عرض صورته . وتغني الصورة أو الرسم عن الجمل
 المبهم أو التعريفات « التقليدية » التي ربما تزيد في الابهام .

*

وبين ايدينا - لحسن الحظ - دراسات من هذا النوع
 في غاية الدقة والتفصيل تتناول الكتاب المقدس . فقد وضع

العلماء الاوربيون مؤلفات بعضها في مجلد ، وبعضها في بضعة مجلدات ، مرتبة حسب الابدية ، أسموها جميعاً معجم الكتاب المقدس . أذكر منها على سبيل المثال :

(١) F. Vigourow مؤلفه Dictionaire De La Bible

طبع سنة ١٧٩١ . وذيله المسمى Supplément au Dictionaire De La Bible في جزئين طبعاً سنة ١٩٢٨ .

(٢) James Hasting محرره * A Dictionary of the Bible

ومساعدة اربعة من العلماء . وقد صدر في اربعة مجلدات وملحق . صدر الجزء الاول سنة ١٨٩٨ ، والثاني سنة ١٨٩٩ ، والثالث سنة ١٩٠٠ ، والرابع سنة ١٩٠٢ ، والملحق سنة ١٩٠٨ .. واحتوت هذه المجلدات على مقالات في اسماء الاعلام والاماكن والآثار والحفريات وعلم سلالات البشر Ethnology ، وطبقات الارض والتاريخ الطبيعي ، وفقه الكتاب المقدس Bible Theology ، وعلم الاخلاق Ethics الخ .. وفي الكلمات المأتمة المستعملة في الترجمة الانكليزية ، وفي الموضوعات المهمة والصعبة . واشترك في تحرير هذا المعجم عدد كبير من العلماء تناول كل منهم الموضوع الذي تخصص في درسه وأحاط به إحاطة جيدة ،

Dealing with its Language, Literature, and Contents *
including The Biblical Theology.

مذيلاً موضوعه باسمه لضمان الامانة العلمية . ثم راجع المحرر ومساعدوه وهيئة من العلماء تلك الموضوعات وأقروها .

(٣) وصدر عن جامعة شيكاغو عام ١٩٠٨ Old Testament and Semitic Studies في مجلدين ألفه ثلاثة من العلماء .

(٤) وصدر عام ١٩١٠ The Temple Dictionary of the Bible * في مجلد واحد ليكون في متناول عامة القراء .

وقد سار محرراه W. Ewing و T. Thomson على غرار المعاجم السابقة ، فأشركا عدداً من العلماء المتخصصين في كتابة بعض المباحث ، وقاما بالمراجعة . بيد ان لهذا المعجم ميزتين : الأولى أنه استفاد من الابحاث والاكتشافات التي جدت في مصر وفلسطين ، وخاصة ما وصلت اليه جمعية الآثار في فلسطين من معلومات جديدة . والثانية أنه تجنب المسائل النظرية والجدلية واقتصر على المعلومات منها . (٥) وصدر في العربية كتاب « مرشد الطالبين الى

الكتاب المقدس الثمين » سنة ١٨٦٨ في مدرسة العلوم الأميريكية في عبيه (لبنان) في ثلاثة أجزاء مجموعة في مجلد واحد . يبحث الجزء الاول منها في وصف الكتاب المقدس والقوانين المفيدة لقراءته . والثاني يفصل أسفار

Deals with Biblical Antiquities, Biography, History, * Literature, Manners and Customs, Natural History, Geography, and Topography.

العهدين القديم والجديد . والثالث يوضح أموراً متنوعة
مذكورة في الكتاب المقدس أولها علاقة به من جهة ما .
ومن أطرف ما في هذا الجزء الفصلان السادس عشر والسابع
عشر اللذان يتناولان الآلات الموسيقية والأوزان والنقود
والمكاييل والمقاييس التي وردت في الكتاب المقدس .
والكتاب مفيد ولكنه دون ما صدر باللغات الأوروبية
حجماً ونوعاً وترتيباً .

وذلك عدا المجلات التي تصدر في مختلف اللغات الأوروبية
قاصرة على دراسة الكتاب المقدس وجميع المباحث التي
تتصل به . وفضل هذه المجلات في عرض المشاكل على ضوء
ما يجد في كل وقت من اكتشافات ومباحث . ومن أشهرها :
La Revue Biblique التي يحررها منذ خمسين عاماً الآباء
الدومنيكيون القائمون على « المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي
في القدس الشريف » .

*

وإذا أضفنا الى هذه المعاجم والمجلات التي يُنتفع من
مادتها واسلوها أيما انتفاع ، ما جمعه مفسرو القرآن الكريم
-- لا سيما المتقدمين منهم -- من معلومات لغوية وتاريخية
وجغرافية ودينية ثمينة ، تبين ان « المعجم القرآني » قد
مهّد في سبيله كثير من الصعاب ، وأضحى البناء ميسوراً

لقيامه على منوال سابق مألوف .

ولكنّ هناك أمراً واحداً لا يصحّ ان يغرب عن البال وهو أن هذا المعجم يتطلب دراسات واسعة ، بل أوسع مما يتصورّ لأول وهلة ، يضطلع بها عدد كبير من العلماء ذوي التخصص والجلد والميول العلمية ، مدة زمنٍ ليس بالقصير ، تحت اشراف هيئة علمية . ولا شك في ان جزءاً كبيراً من هذه الدراسات يجب ان يتم في موطن الوحي نفسه .

فهل يظفر القرآن الكريم بهذا المعجم ؟ إن ظفر فانها لغنيمة خليقة بأن 'تشدّ' اليها الرحال ، وتبذل في سبيلها الاعمار والاموال ، ويتعاون عليها الافراد والجماعات . وان لم يظفر فلنحفظ هذه الامنية الغالية في صدورنا الى ان يشاء الله .

أبو العلاء المعلم

تناول الكتابُ شخصية أبي العلاء من جميع نواحيها حتى يكاد الباحث أن لا يجد ناحية خالية من الدرس والبحث .
وقد رأيت وأنا أقرأ سيرة أبي العلاء في كتب المتقدمين ناحية لم يطرقها أحد من قبل ، إما سهواً وإما استخفافاً . تلك هي شخصية أبي العلاء المعلم .

وقد بدت لي هذه الشخصية واضحة طريفة حتى لأكاد أقول إن أبا العلاء كان معلماً أكثر منه شاعراً وكاتباً وحكيمياً ، وأنه لم يخلد على الزمن بشعره ونثره وحكمته ، بل بهذه الرسالة « التعليمية » التي حملها زهاء نصف قرن ، وجعلت من بيته الصغير « دار علم » في الاسلام ، يجب أن تذكر الى جانب الدور التي كانت منتشرة في أمهات المدن الاسلامية ، والتي نسميها تجوِّزاً « الجامعات الاسلامية » كالنظامية والمستنصرية .

ولعل من حسن التوفيق أن أجد نصاً في كتاب ابن العديم يذكر « أن الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فأنك متولي حلب واعمالها بجمل هذا العالم الى مصر لبني له (دار علم) يكون متقدماً فيها ، وسمح بخراج معرفة النعمان له في حياته

وبعده ، وان عزيز الدولة نهض للوقت وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ السجل . وكتب الى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك وسومح بتوك ذلك كله .

واذا كان ابو العلاء استعفى من قبول هذه الدار فلا شك في انه اثر البقاء في « دار علمه » المتواضعة التي كان يتوارد اليها الطلاب من جميع اطراف البلاد العربية . يزورني الناس هذا ارضه يمن من البلاد وهذا ارضه حبش

*

لم أجد في كتب المتقدمين وصفاً لدار ابي العلاء . وكل ما قيل انها كانت داراً حسنة بأويها . وقد حججت سنة ١٩٣٧ (ثم سنة ١٩٤٨ مراراً) الى المعرة ، فوجدت حينئذ في احدى غرفها ضريحاً يعلم على أسلوب الكتاتيب ، ووجدت في أخرى شاهدة عُثبت بها ، ووجدت غرفة ثالثة مهجورة . وهذا ما رآه الاستاذ سامي الكيالي عند زيارته إياها . ويقول الاستاذ الكيالي ان الغرفة الثالثة لا يزيد طولها على ثلاثة امتار وعرضها على مترين . ففي هذه الدار القديمة ذات الغرف الثلاث جلس ابو العلاء للتدريس . ولعله اتخذ غرفة لمضجعه ، وأخرى لمصلاه ، وثالثة لخدمته . ويستأنس من نص رواة تلميذه ابو زكريا التبريزي انه كان يقعد للتدريس في مسجده . وليس ما يمنع أن يتسع المسجد لطلابه اذ المعقول أنهم وفدوا عليه في اوقات مختلفة . واطول مدة قضاها عنده احد طلابه ، الرئيس ابو المكارم الأبهري ، اربع سنين . واقام التبريزي اكثر من سنتين .

ولم يمرّ بالمعرة وزير او فاضل الا قصده واستفاد منه او طلب شيئاً من تصنيفه . ولكن علمه تجاوز من حضره الى من لم يحضره . فكتب اليه كثيرٌ من طلاب المعرفة من مختلف الطبقات . وأجابهم جميعاً لا برسائل قصيرة بل بكتب ضخمة . فهذا امير يسأله ان يؤلف كتاباً برسمه فيضع له كتاباً اسمه تضمين الآي في اربع مائة كراسة . وهذا واعظ يستعين به فيضع له كتاباً اسمه المواعظ الست في خمس عشرة كراسة . وهذا صديق يعتب فيكتب اليه رسالة الغفران . وقس على ذلك عدداً كبيراً من الكتب والرسائل يشهد له بالمروءة والبرّ ، وبأنه كان معلماً لعدد لا يحصى من طلاب المعرفة .

وعلم الشعراء مكانته (التعليمية) وتمكنه من اللغة والادب فعرضوا عليه شعرهم وحكمّوه بينهم . فهذا ابو نصر المنازي يدخل عليه في جماعة من أهل الأدب ، وينشد كل واحد منهم ما تيسر من شعره ، وينشد المنازي قصيدته التي مطلعها :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
فيحكم له ابو العلاء أنه أشعر من في الشام . ثم يلقاه المنازي في جماعة من أهل الأدب في بغداد ، وابو العلاء لا يعرف منهم أحداً ، فينشد كل واحد ما حضر من شعره ، وينشد المنازي قصيدته التي مطلعها :

لقد عرض الحمام لنا بسجع اذا أصغى له ركبٌ تلاهى
فيقول له ابو العلاء : ومن في العراق ، عطفاً على قوله السابق ومن في الشام . وهذا كاتب يُنفذ اليه نسخة من شعر البحثري

لتصحح، فيثبت له الاغلاط كأنه حاضر للقراءة. وهذا امير يبعث
اليه نسخة من ديوان الحماسة يسأله ان يخرج في حواشيها ما لم
يفسره المفسر، فيفرد له كتاباً مقداره اربعون كراسة. وهذا
طالب علم من اليمن يقع اليه كتاب في اللغة سقط أوله واعجبه
جمعه فحمله معه الى الحج وعرضه على الادباء فلم يجد أحداً يرشده.
فدُلَّ على ابي العلاء فاحتج به وعرفه ما حمله على الرحلة اليه. وما
قرأ الطالب منه شيئاً حتى عرفه ابو العلاء وذكر له اسم مؤلفه
وأتم له النقص.

كان ابو العلاء كسائر علماء القدامى يُلمّ بكل موضوع.
ولكنه تميز باحاطته بمفردات اللغة إحاطةً تكاد تكون منقطعة
النظير. وطغت عليه هذه الظاهرة حتى أفسدت عليه بعض كتبه.
وقد علّم طلابه ما علم. علّم الحديث والفقه واللغة والشعر وما
يتفرّع منها من نحو وغريب وعروض وما اليها، ووضع فيها
الكتب، منها ما هو تأليف ومنها ما هو شرح. شرح كتاب
سيبويه، وخطبة أدب الكاتب لابن قتيبة. وفسّر شعر ابي تمام
وشعر المتنبي. وذلك عداس شعره ونثره بما كان يملّيه على طلابه
ويشرحه لهم ويجمعه في كتب منفردة.

وتجاوزت رسالته «التعليمية» الافراد الى الجماعات. ولنسأل
هنا: أكان ابو العلاء معلماً أولاً ومصلحاً اجتماعياً ثانياً ام العكس؟
والذي أراه ان كل الرسالتين تنبعث من منبع واحد. فالمعلم الحق
هو مصلح. والمصلح الحق هو معلم. ورسالة المصلح والمعلم واحدة.
واذا خلت رسالة المعلم من الاصلاح كانت رسالة جوفاً لا لب فيها.

وإذا خلت رسالة المصلح من التعليم كانت دعوة بلا وسيلة . وأبو
العلاء كان معلماً حقاً . جمع بين طرفي الرسالة أحسن جمع . علّم
من طلب العلم من قريب أو بعيد . وعلّم من لم يطلب العلم
لا من قريب ولا من بعيد . وجعل للثاني عليه حقاً كحق الأول
أو يزيد .

ولا أشرح المبادئ التي قامت عليها مدرسة أبي العلاء العامة ،
فقد تناولها أكثر الذين كتبوا عنه حتى تضخمت شخصية أبي العلاء
المصلح وطغت على سائر النواحي . والكتاب معذورون ، لا
لأنهم جهلوا أبا العلاء العالم ، وأبا العلاء الشاعر ، وأبا العلاء
اللغوي ، وأبا العلاء الكاتب ، ولكن لأن أبا العلاء تفرّد بهذه
الرسالة واضفى عليها من روحه ، واكسبها قوة من بيانه . يضاف
الى ذلك ان الناس في عصره فهموا الأدب فهماً ضيقاً . فهموه على
أنه بيات جميل رائع فحسب . وفهموا التعليم فهماً قاصراً ، إذ
حسبوه وسيلة لنقل المعارف فحسب . فجاء أبو العلاء وأبان لهم
رسالة الأدب ورسالة التعليم كما يجب أن تكونا . فبهتتم حيناً
وبهرهم في سائر الأحيان .

*

وكيف كانت علاقة هذا المعلم بتلاميذه ؟
لا شك أولاً في أنه لم يتقاض منهم اجراً على تعليمهم . بل
نحن نجد غير نص يشير الى أنه كان 'يجري على جماعة منهم رزقا .
وقصة أبي زكريا التبريزي شاهد صدق على ذلك . فقد روى أنه
حين قدم عليه أعطاه صرة فيها ذهب لينفق منه عليه وليتفرغ هو

الى الاستفادة . فأخذ أبو العلاء الصرّة ووضعها عنده . وتقدم الى وكيله وأجرى للتبريزي ما تدعو اليه حاجته . فتناول ذلك مدة مقامه في المعرّة وهو يظن أنه من ذهبه الذي دفعه الى الشيخ . فلما أراد الانصراف الى بلده دفع اليه أبو العلاء صرّته بعينها . وحاول التبريزي أن يحمله على أخذها فامتنع .

ويبدو برّه بتلاميذه في رفقته بهم وعطفه عليهم . ومن ذلك ما رواه التبريزي أنه بينما كان قاعداً في مسجده يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه دخل فجأة جاره له من بلده فتغيّر من الفرح . فقال له أبو العلاء : ما أصابك ؟ فحكى له أنه رأى جاره بعد أن لم يلق احداً من بلده منذ سنتين . فقال له أبو العلاء : قم وكلمه . فقال التبريزي : حتى أتمّ السبق . فقال أبو العلاء : قم ، أنا انتظرك . فقام وكلمه ثم عاد .

وأراد حساده ان يدسوا له في غير مسألة . فكانوا يغرّرون ببعض طلابه يدفعون اليهم الاسئلة ليخرجوه . وكان هو يدرك ذلك فلا يشور ولا يُعْتَف ولا يزيد على ان يهدد بفرأقهم .

ولا نعلم أنه كلّف احداً من تلاميذه أن ينسخ له . فقد وكل ذلك الى اقربائه ومن في جاريته . وخص ابن اخيه أبا محمد - الذي تولى قضاء المعرّة زمن عمه - بكتابة الاجازة والسماع . وحتى هؤلاء الاقرباء والنسّاخ نالوا فوق ما يجب من الشكر والعطاء . وقد اعتبر جميل ابن اخيه محمد كجميل أمه .

ولكن اسمى مظاهر البر بتلاميذه يبدو في هذا العمل الذي لا نجد له نظيراً في تاريخ المعلمين .

ذلك هو تأليف الكتب برسمهم وعلى اسمهم . فوضع (ضوء السقط) لتلميذه ابي عبدالله الاصبهاني . ووضع (عون الجمل) - شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل - لحادمه وابن خادمه ابي الفتح ابن ابي هاشم . ووسم كتاباً من كتبه (بالختصر الفتح) باسم أبي الفتح هذا . وذلك عدا ما ألف لطالبيين كثيرين من غير تلاميذه .

وقد كنا نحسب ان رجلاً في علم أبي العلاء ومزاجه وحاله الجسماني معرض لغرور ينتابه أو للفتنة نابية يوجهها في حال غضب لمن يجب عليهم احتماله من قريب أو تلميذ . ولكنه بريء من هذا براءة صاحب الرسالة العامل بها أو قل براءة المعلم الحق الذي يأخذ نفسه بالفضائل قبل ان يأخذ بها غيره .

ولست مغالياً بقولي إن أبا العلاء « المعلم » المصلح الثائر على الترهات والاباطيل ، الساخط على المظالم والآثام ، هو ابو العلاء الحق ، وهو ابو العلاء الخالد على الزمن ، وهو ابو العلاء الذي نذكره كلما أفنت العقول وذرت قرون الشياطين ، وبغى باغون أفاكون أو دجالون .

فما أحوجنا الى رجل جرى صريح مثله ! وإن كنا لا نجد في هذا العصر نظير أبي العلاء فلنقرأ كتبه لعل فيها بعض العزاء .

الفهرست

صفحة

٥	مقدمة
٧	هل الادباء بشر؟
١٤	المقالة في الأدب العربي الحديث
٢٠	صناعة النقد في الأدب العربي الحديث
٢٨	هل ظهر في فلسطين أدب وأدباء؟
٣٧	أساتيد وأساليب
٥٥	صَلَف
٦٣	عواطف العرب
٧٢	أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي
٨١	معجم القرآن الكريم
٨٩	ابو العلاء المعلم



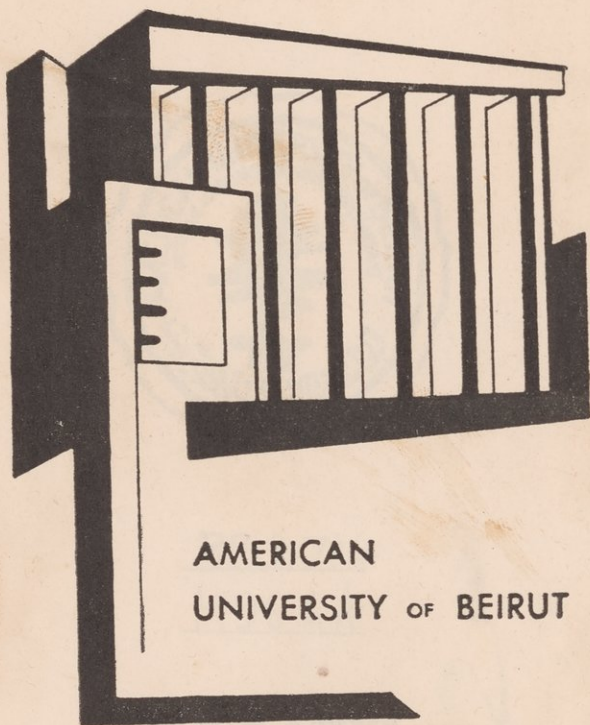
الحسيني، اسحاق، موسم،

هل الادباء بشر؟

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033338



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709

Ha394hA